٧ أيام
فى التحرير
رواية

الخشن، هشام .
٧ أيام في التحرير / هشام الخشن
. ـ ط ١ . ـ القاهرة :الدار المصرية اللبنانية ، ٢٠١١.
١٥٢ ص ؛ ٢١ سم.
تدمك : ٤ - ٦٨٤ - ٤٢٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ ـ مصر - تاريخ - الثورات.
أ ـ العنوان . ٩٦٢
رقم الإيداع : ٧٠٨٣ / ٢٠١١

©

الدار المصرية اللبنانية
١٦ عبد الخالق ثروت ـ القاهرة .
تليفون: ٢٣٩١٠٢٥٠ ٢٠٢+
فاكس: ٢٣٩٠٩٦١٨ ٢٠٢+ ص.ب ٢٠٢٢
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ربيع ثاني ١٤٣٢ هـ ـ أبريل ٢٠١١ م
الطبعة الثانية : جمادى الآخر ١٤٣٢ هـ ـ مايو ٢٠١١ م

الدار المصرية اللبنانية

إهـــداء

إلى من رفضت قلوبهم الشابّة

أن تنبض إلّا حرة

إلى الثوار

شهداء وأحياء

مقدمة

هذا الكتاب أملاه قلبي عليّ وشجعني عقلي على الإسراع في سطره، وما أشعر به مازال متأججًا داخل صدري، وقبل أن تنسحب العواطف ويبدأ المنطق في أخذ الزمام. فالثورات شديدة الرومانسية، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الثورة في الأساس شرارتها الأولى حالة انقلاب عاطفي.

كان أول دخول لي إلى التحرير يوم الثلاثاء ، الأول من فبراير؛ قبلها كنت ثائرًا من منازلهم أو بالأصح، وأنا أؤمّن مسكني ممن أُطلقوا في الشوارع ليرهبونا. لم يكن هذا هو السبب الوحيد لتأخر وصولي؛ فالسبب الآخر اكتشفته، حين وصلت التحرير، وهو أنني قد فارقت سن مفجري الثورات، وأصبحت في سن التؤدة والحرص.

في التحرير قابلت وتناقشت مع أناس، عشت عمري بينهم، ولم يجر بيننا حديث فقد ربطونا سنوات في ساقية، لم يسمحوا لنا من خلالها برفع رأسنا لفوق، كي نتمتع بما ومن حولنا. فوجئت بشباب مثقف ذي حجة وأصحاب عقيدة.. لا أتكلم عن قائدي أو زعماء أو منظمي الثورة، ولكني أعني الشباب الذي أتى يناصرهم وثبت في وقفته.

شباب أكد نظريتي أن النظام حين أراد أن يثبِّت حكمه، حاربنا في التعليم؛ لأنه أراد أن لا نفهم؛ كي لا نسائله ؛ ويا لسخرية الأقدار أن يُسْقِطَ هذا النظام ما ظن أنه أفسده: جيل شباب رائع علم نفسه ما ضنوا عليه به.

هذا الكتاب ليس عن أحداث الثورة، وبالتأكيد ليس عمن قادوها؛ هذا الكتاب عن عواطف الثورة، ومن وقفوا في التحرير، وكيف وصلوا إلى الميدان في أوقات مختلفة ووفقًا لتطور مشاعرهم، ولكنهم في أخر الأمر توحدوا على حب بلادهم ولفظ الضيم.

لقد جعلنا النظام السابق، في لحظات يأس، نتشكك في أسباب حبنا لمصر، وما إذا كان هذا العشق منطقيًا أم لا.. في التحرير أدركت أننا حين تشككنا، كنا في الحقيقة نكره النظام.. وفي التحرير أيقنت أن عشقي لمصر شديد المنطقية.

«ارفع رأسك فوق ..... أنت مصري»

فبراير ٢٠١١

أيا مصر

أهذا نبضك؟

وسريان دمك؟

وخفقان قلبك؟

أ شفي فؤادك العليل؟

بعد هذا الأمد الطويل

مَنْ هذا الشاب الجميل؟

أ لأحمس وصلاح الدين وزغلول سليل؟

مازال يأبى عيش الذليل

يضحي بالنفيس ماضيا على السبيل

على دربك اختار الغرض النبيل

لا يتغنى في عشقك بل يقدم الدليل

كاشفًا صدأ غطّى معدنك الأصيل

ليعيدك درة يا هبة النيل

هشام الخشن

اليوم الأول

الاثنين
٢٤
يناير
٢٠١١

علا صوت أذان العشاء في شارع حسين حجازي، الموازي لشارع مجلس الشعب، ومعه صوت الدكتور أحمد ينادي على ابنه باسم؛ لكي يصلّوا مع بعضهم جماعة كما تعودوا. كان باسم في حوار على الكمبيوتر مع شيرين، كالعادة كان قد فقد إحساسه بالزمن كلما التقى حبيبة القلب. أكثر من ثلاث ساعات كانت قد مرت منذ فتحا كومبيوتراتهما، ولكن الساعات مرت ثوانٍ على القلوب اليافعة، التي تصدح بالحب. لم يكن الحوار رومانسيًّا على الإطلاق ، فقد كانت شيرين متدفقة الحماسة، وهي تحكي لباسم عن تفاصيل وتدابير اليوم التالي. كانت هي التي نبهت باسم إلى الدعوة التي انتشرت على الفيسبوك للتظاهر يوم ٢٥ يناير، يوم عيد الشرطة. باسم كان معجبًا باختيار اليوم : رأه اختيارًا عبقريًّا ؛ ففي يوم عيدهم سنطالبهم بالكف عن الافتراء، وسنطالب بتغيير قيادتهم. ولكن شيرين كانت أحلامها لليوم التالي قد تغيرت وتشكلت بأطياف أخرى ؛ ألسنا في أم الدنيا، وبالتأكيد لسنا بأقل من تونس، فلمَ لا نعلِّي سقف الحلم. ابتسامة باسم كانت تملأ وجهه، وهو يتمتع بقدرة شيرين الهائلة على الحلم، وما يستتبعه ذلك من سيل لا يتوقف من الكلام. وما بين شطحات أحلامها فيما تراه من تغيير ستأتي به وقفتهم في الغد ؛ كانت تعيد عليه مرارًا وتكرارًا تعليماتها له، فيما يخص لقاءهم المرتقب في الصباح في طريقهم إلى ميدان التحرير: ستنتظره على ناصية شارعه مع شارع القصر العيني، رافضة عرضه أن يمر عليها ليصحبها من بيتها في العجوزة. عليه أن يلبس جينز وحذاء رياضيًّا، وأن

يحضر بعض الخل في زجاجة بلاستيك صغيرة، وأن لا ينسى عبوة البيبسي حيث سيستخدمها، حال استعمال الشرطة القنابل المسيلة للدموع . كانت قد دونت كل التعليمات، التي امتلأت بها مواقع الدعوة لمظاهرات الاحتجاج، وكانت تنقل له وتؤكد عليه كل تفصيلة.

سمع باسم وطء أقدام والده في طريقه إلى غرفته، فأسرع مقاطعًا شيرين، مستأذنًا أن تعطيه عشر دقائق يعود بعدها إليها؛ ولم ينتظر ردًّا، وهويغلق شاشة الكمبيوتر في تزامن مدهش، مع فتح والده لباب الحجرة.

الدكتور أحمد: ألم تسمعني أناديك كي نصلّي الجماعة معًا!!

باسم: أنا جاهز يا باشا.

الدكتور أحمد: الكمبيوتر هذا سيخرب دماغك.. يا ابني أنت في بكالوريوس؛ ركِّز كي تخلص من صداع المذاكرة، وتبدأ حياتك.

باسم: وهويا دكتور مصانع الأدوية منتظرة تخرج الصيدلاني باسم أحمد.. ستظل تصرف عليَّ مدة بعد التخرج. ألم أقترح عليك أن أتعلم صَنْعة وأنت الذي رفضت!!

ابتسم والد باسم قائلا: والكمبيوتر والوقت الهائل الذي تقضيه عليه هو حلك؟ نفسي أعرف ما الذي تفعلونه يا شباب أمام شاشاته هذه المدد الطويلة! لماذا لا تقرأ كتابًا أفيد لك. أنا لا أذكر أخر مرة رأيتك ممسكًا بكتاب تقرأ فيه.. جيل قليل الثقافة وضحل.

باسم: مقبولة منك يا دكتور.. لكن هناك ثقافة كثيرة على الكمبيوتر والنت.

الدكتور أحمد: دعك من السفسطة؛ أي ثقافة: الشات وصور العاريات وأخر أغاني الجيل. قم يا أستاذ دعنا نصل، بدلا من الوقت الذي تهدره.

قام باسم دون محاولة استمرار النقاش، فقد أدرك أن خلافه مع أبيه يندرج تحت تسمية صراع الأجيال، الذي طالما تركت عنده المناقشات دون اكتمال.

***

في الطرف الآخر من شارع حسين حجازي، كانت إلهام قد انتهت لتوها من إعداد العشاء، حين رن محمولها بصوت وصول رسالة: أوحشتيني ..... ساعة، وأكون عندك لأتعشى معك وبك ... أحبك..

ابتسمت إلهام ودق قلبها، وهي تقرأ رسالة عبد الحميد.. أخذتها ذكريات حبهما إلى حين رأته أول مرة، حين تقدمت لشغل وظيفة مديرة مكتبه. كان هذا قبل عامين ولم يكن لديها أي من المؤهلات المطلوبة، وهي التي لم يكن قد مضى على تخرجها شهور، ولكن صديق عمها الذي أقنعها بالتقدم طمأنها أنها ستقبل. حين دخلت مكتب شركة عبد الحميد، اعتراها الخجل مما تلبسه، وهي التي ارتدت أغلى ما في دولابها. وضح لها من أول نظرة أنها قد خطت إلى عالم، طالما شكت في وجوده أصلا، حين رأته في فيلم أو قرأت عنه في رواية. ولكن آه من عبد الحميد وخبثه، فلم يكن يبحث عن مديرة مكتب، ولكن، كما قال لها فيما بعد، كان قلبه في حالة بحث عن خليلته. لم تمض أشهر، إلا وكانا متزوجين: نعم عرفيًّا، وما المانع فهو حلال، ثم أنه وضع مؤقت إلى أن يحل وضعه مع أم الأولاد.. المهم أنه لم يطل منها شعرة قبل الزواج ؛ ثم إن أهلها يعلمون وموافقون ومباركون لوضعها.

نظرت إلهام حولها في سعادة؛ هذه الشقة التي ولد ونشأ فيها عبد الحميد، تتكون من ثلاث غرف نوم وحمامين، بالاضافة إلى الصالون وحجرة السفرة، وهي التي تربت هي وإخوتها الخمس في غرفة السطوح، التي لم يستطع أبوها أن ينتقل بهم منها.

ولكن هل كان عبد الحميد يحبها عن جد؟ كلامه لها كله هيام وغرام، ثم إنه يغدق عليها ولا يتأخر عن أي من طلباتها. وفي الفراش لا يمكن أن تكون أفعاله إلا وليدة حب كبير، ولكن إلهام دائمًا ماتساءلت بداخلها: هل كان يبحث قلبه عن خليلة، أم أن جسده هو الذي أراد عشيقة؟

أوقفت أفكارها، وقامت لتستحم وتستعد للذي اشتاقت له، فقد مضى أكثر من عشرة أيام منذ زارها. كانت تعرف أنه سيغيب، وهو الذي يعرف عن ظهر قلب موعد دورتها الشهرية؛ وليكن فهي حلاله الذي يريد اغترافه.. ابتسمت وهي تستحم، حين تذكرت حين اصطحبها إلى باريس، وهي التي عاشت تحلم بزيارة الإسكندرية.

أنهت حمامها، وارتدت قميص النوم الذي أهداه لها، حين عاد من سفر أعماله الأخيرة.

تريحنت وأخذت تتمخطر في خفر بين مطبخها، متممة على تجهيزات العشاء وحجرة النوم واضعة لمسات ما بعد العشاء.. لم يخل ذهنها من أمل أن تكون الليلة هي الأولى، التي تبيت في حضنه حتى الصباح في عش زواجهما.

***

لا يمكن لمن يدخل شقة الأستاذ سامي حليم المحامي، وزوجته نادية، ألا يعرف أنهم أقباط متدينون؛ صور العذراء والمسيح تزين الحوائط، والصلبان بأحجام مختلفة، في كل زاوية، مضافا إليها صور القديسين، وكذلك صورة للبابا شنودة، وهو أصغر سنًّا. عائلة قبطية في حالها مستمسكة بتعاليم دينها، لا تؤذي وتحاول تفادي الأذى. سامي ونادية لهما ولدان: ماجد الطبيب المهاجر والمستقر في كندا منذ ثلاث سنوات، ورامز أحد أوائل دفعته في كلية الحقوق في العام الماضي، والذي مازال في انتظار التعيين معيدًا أو في النيابة، وإن بدا أن الانتظار سيطول.. على مائدة العشاء، اجتمعوا بعد عودة سامي من مكتبه.

سامي: ما الأخبار يا رامز؟ في أخبار من الجامعة أو طلب تعيين النيابة؟

رامز: لا جديد سوى أنني غالبًا مسبب مشكلة للجامعة بتفوقي، فلا يدرون ماذا يفعلون لتفادي تعيين القبطي! غالبا لن يعينوا أحدًا من الدفعة، وبالتالي أكون أفسدت فرصة متفوقي المسلمين أيضًا!! أما النيابة فلا أمل في النيابة العامة، وأنا لا أنوي أن أضيع حياتي في النيابة الإدارية..

ابتسم سامي متأسيا: عمرنا ما عوملنا هكذا في هذه البلد. أشكر الرب أن هداني إلى موضوع الهجرة إلى كندا. على الأقل إذا ساءت الأمور عما هي عليه، أصبحت لدينا فرصة في مكان آخر.. الجوازات الكندي الموجودة في الخزينة أصبحت أهم مستند لدينا .

رامز: يا بابا.. أيكون الحل أن نهرب؟ نحن نصرخ إن هذا وطننا.. أنترك حقنا فيه هكذا، ونذهب دون محاولة أخذه؟

نادية: أي حق يا رامز وهم يفجروننا؟ ما ذنب الأبرار الذين لم يريدوا سوى الصلاة للرب في الإسكندرية، فانتهوا قتلى؟

رامز: لا ذنب لهم يا أمي.. لا ذنب لهم ولكن من أجلهم، لابد أن نحاول أن نؤمن حقوقنا وحقوق أولادهم وإخوانهم.. لابد أن ننهي اللعبة التي يلعبها السياسيون بنا، والفرقة التي يريدونها ليسودوا.

سامي: هذا كلام نظري يا رامز؛ لقد تعدَّينا نقطة اللاعودة، والقادم أسوأ دون شك.

رامز: أهكذا يا أبي تريد الاستسلام دون محاولة؟ أنت رجل قانون وحقوق ؛ ألن تحاول أن تسترد ما هو حقك؟

سامي: وما اقتراح سيادتك لاسترداده يا فيلسوف؟

رامز: لا أعرف يا أبي .. أنا أرى أن الموضوع سياسي وأن مشكلتنا مع من يحكموننا، وليست مع المسلمين على جموعهم.. هناك وقفة احتجاجية غدًا ضد الحكومة واستبداد الشرطة؛ أظن أننا يجب أن نشارك فيها.

نادية: أجننت! أتريد أن تموت ليزداد عدد قتلى كنيسة القديسين.. سامي، تحدث مع هذا المجنون.

سامي: أتريد أن تقف مع الإخوان المسلمين؛ عبقري هذا الحل يا أستاذ رامز.. ساعدهم فيما يريدون؛ حتى يتمكنوا فيما بعد من حرقنا!

رامز: أولًا هذه مبالغات ، ثانيًا هونفس الوطن الذي نريد جميعًا أن نغير ما به، وهوالـ ٨٠ مليون إخوان يا بابا؟

سامي: لأ، ٦٥ مليون إخوان، والباقي قبط!!

نادية: ثم إن أبونا أمرنا ألا نشارك؛ مفهوم؟ أتريد أن تخسر السماء والأرض؟

سامي: هذا طيش شباب، لم أتعود منك هذا يا رامز. لا أريدك أن تفكر بمثل هذه الطريقة. اسمع كلام من هم أكبر منك، وأكثر منك خبرة.. أنت لا تدري عما تتحدث.

سكت رامز محافظًا على ما ربياه عليه من أدب واحترام.. استأذنهم في عدم استكمال العشاء، فقد أراد أن يدخن سيجارة، بعد فوران دمه الذي أصابه جراء مناقشة والديه.. فتح باب الشقة ونزل إلى الشارع، فمازال تدخينه سرًّا على والديه.

***

باسم أنهى الصلاة مع والده ونزل إلى الشارع. أحس أنه يريد أن يتنفس الهواء دون جدران، وهو على الدرج أرسل رسالة إلى شيرين ليخبرها أنه نزل. سرعان ما ردت عليه أنها ستنام مبكرًا استعدادا للغد، وأنها ستنتظره حيث اتفقا في العاشرة صباحًا. لم تنس أن تذيّل رسالتها بكلمة أحبك. ابتسم باسم، وهو يرسل نفس الكلمة ردًّا عليها.

حين وصل باسم إلى ناصية شارع القصر العيني، وجد رامز واقفا مشعلا سيجارته ومستمتعا بها.. اتجه نحوه باسم محييا زميل المدرسة، وصديق الطفولة والجار المستديم.

باسم: أخبارك؟

رامز: كله تمام.. وأنت؟

باسم: نازل الوقفة غدًا؟!

ارتبك رامز من السؤال، سيطر على ذهنه : لم هذا السؤال بالذات؛ ولم الآن، وهو الذي انتهى لتوه من مناقشة والديه. ردَّ على صديقه:

- أي وقفة؟

باسم: الوقفة الاحتجاجية.. يوم الغضب، ألا تعيش معنا؟

صوت باسم كان فيه نوع من الفخر والتعالي، وكأنه يعلن لرامز أنه سلبي، وأن «باسم» بطريقة أو بأخرى أفضل منه. أنهى صوت مألوف توتر رامز:

- أنت يا أستاذ منك له، أنتم عاملين تجمع ؟ ممنوع يا أفندي!!! في قانون طوارئ في البلد!!

نظر كلاهما صوب الصوت، فوجدا «شريف» بلباس طلبة كلية الشرطة، يترجل من التاكسي متجهًا صوبهما.. زميل وصديق وجار آخر من جيران الشارع .. سلام حار وأحضان وقبلات بين الثلاث شباب، قبل أن يبدأ الحديث :

باسم: ماذا تفعل هنا؟ هروب من الكلية يا دفعة؟

شريف: لأ يا دكتور يا طويل اللسان؛ أجازة بمناسبة عيدنا واجتهادنا في حمايتكم.

باسم: حمايتنا ولا حماية دولتكم يا باشا!

رامز: اعذره يا شريف؛ لأنه في حالة ثورية اليوم.

شريف: ولم لا ؟ من حقه.

ضحك باسم: حقي حتى أعبر الخط المسموح به، صح يا داخلية؟ بما أنك هنا، إذن ستقف معنا غدًا وقفة يوم الغضب؟

شريف: يوم الغضب؟ من غضبان؟ ومن ماذا؟

باسم: والله احترت منكما؛ أترون حال البلد عظيمًا لهذه الدرجة؟ ألا ترون أي شيء تريدون تغييره أو تحسينه؟ يا شريف؛ هوكله تمام يافندم؟

رامز: وهي وقفتك يا باسم أنت وأصدقاء النت هي التي ستغير ما نريد تغييره؟ كم واحد سيقف؟ وكم منهم لهم أغراض وأطماع؟ أقول لك شيء، كم منهم مع النظام أصلًا، وسيقفون وسطكم ليفتحوا ملفات للجدد منكم في أمن الدولة؟

شريف: ما الموضوع؟ أأنتم تحت تأثير مخدر؟ أي تغيير يا شباب؛ كل واحد يصلي على نبيه يا جماعة واقصروا الشر..

لم يكد شريف ينهي جملته حتى رنَّ محموله..

شريف: أهلًا يا باشا.. أنا حالا وصلت. لم أطلع البيت بعد، ما أخبارك يا عادل؟

فهم باسم ورامز أن على الطرف الآخر من الخط عادل، ضابط أمن الدولة، شقيق شريف..

شريف: الحمد الله إن كله تمام. ما حكاية يوم الغضب يا باشا؟

حين جاءه الرد، انفجر شريف ضاحكًا، قبل أن يقول:

– يعني لن تسهر في الشغل اليوم.. سأنتظرك لنتعشى معًا، تمام يا عادل.. سلام.

نظر شريف إلى باسم ورامز، فرأى الفضول في أعينهما ؛ لم يطل انتظارهما؛ إذ قال شريف :

– عادل يقول إنهم لا وقت لديهم لعصابة حمادة وتوتو وشلة هيثم وتمورة، التي تكافح على الفيسبوك. غالبًا سيرسلون لهم قوات خاصة، سلاحهم الأساسي هروات من النايلون؛ حتى لا تفسد تسريحة شعرهم.

لم يبتسم باسم ولا رامز الذي اطفأ سيجارته، وسلَّم متجها إلى بيته. حديث شريف وباسم مالبث أن انتهى، بعد اطمئنان كليهما على أحوال الآخر، انصرف بعدها شريف إلى المنزل، على وعد لقاء، أما باسم فقد استمر في وقفته شاردًا.

***

وصول سيارة عبد الحميد الفارهة إلى الشارع لم يعد ملفتًا للانظار؛ وخاصة لقاطني الشارع الأصليين، الذين توصلوا إلى شخصية صاحب السيارة وأسباب زياراته واستعادوا تاريخه وقصص ترعرعه وسطهم. ومع بزوغ نجمه كأحد رجال الأعمال المشهورين في البلد، صار لفترة أحد أسباب افتخار من حضروه من أهل الشارع؛ وإن كان هذا الافتخار مالبث أن انقلب إلى ازدراء، حين تغلبت نذالته لما لم يمد يد المساعدة في أي طلب قدم إليه. وحتى الذين التمسوا له العذر فيما يخص الطلبات ذات العلاقة بالعمل، أفقدتهم تصرفاته الحجة بعد ما علا في صفوف الحزب الوطني، وغدا أحد فرسان لجنة سياساته؛ فكان الحكم النهائي من أحد حكماء الشارع أن على الجميع حفظ كرامته، وعدم طلب أي شيء من الخسيس عبد الحميد؛ لأنه يلعب لنفسه فقط.

كالعادة، توقفت السيارة أمام العمارة التي عاش فيها عبد الحميد صغيرًا. انتظر دون حراك في مقعده، وكأنه مجهود أدنى من أن يبذله من في مقامه، منتظرًا السائق حتى يفتح له الباب، قبل أن يترجل وهو يتحدث في محموله.

إلهام كانت في حجرة النوم، حين سمعت الباب يفتح.. مع صوت دخول وخطوات عبد الحميد إلى البيت تسارعت دقات قلبها، وزاد تدفق الدماء في عروقها.. قامت مسرعة لتلقاه فوجدته عند باب الحجرة.

لم تستطع أن تقول له أنه أوحشها، ولا أن تخبره أنها حضَّرت له الحمام ليغتسل، وينزل عنه غبار يومه؛ فقد انقض عليها عبد الحميد كالوحش الثائر مقبِّلًا ومحتضنا. ثوان وجدت إلهام نفسها بعدها في الفراش وعبد الحميد فوقها، كالعادة مقدمًا على ما يشبعه، مصدرًا تعليمات بين آن وآخر إليها لتخلع هذا أو تتحرك هكذا. ركزت إلهام جهودها في إرضائه وتنفيذ تعليماته المتتالية ؛ تكاد تجزم أنها دقائق قليلة قبل أن ينتهي منها. وقد كان وإن صادف لحظة انتشائه أن دق محموله، فقام من عليها ليأخذ المحمول ويرد، وهو يخرج من الغرفة. نبرة صوته، وما وصلها من ردوده جعلاها متأكدة أن زوجته هي التي على الخط؛ تشاءمت حين سمعته ينهي المكالمة، مؤكدا أنه سيكون هناك في خلال نصف ساعة.

حين عاد للحجرة، بدأ يرتدي ثيابه في عجالة، دون أن ينظر إليها، وكأنها غير موجودة.. بدأت هي الأخرى ترتدي ثيابها، قبل أن تستطيع أن تسأله على استحياء:

- ألن تتعشى معي كما اتفقنا؟

وكأنه فوجيء بوجودها في الحجرة، رفع رأسه في اتجاهها، وهو يتمتم:

- مضطر انصرف يا حبيبتي، فهناك طارئ في الحزب.. يوم الجمعة بعد الصلاة أكون هنا، وتحضري لى أحلى غذاء.

كان قد استدار وخرج في اتجاه باب الشقة، فلم يسمع إلهام تسائل نفسها متعجبة:

- الحزب؟!

***

مع خروج سيارة عبد الحميد من الشارع، دخلت من الناحية الأخرى سيارة، لا تقل عنها فراهة، وتضاهيها فخامة. خالد السيد ابن شارع حسين حجازي، وبجانبه زوجته الأمريكية كارول، ومعهم طفلاهما آدم وسارة على المقعد الخلفي، أتوا لزيارة والدة خالد في منزل الأسرة، الذي تعيش فيه وحدها بعد وفاة زوجها، وسفر ابنتها مع زوجها الدبلوماسي إلى لندن. محاولات خالد وكارول المتكررة مع أمه لتنتقل للعيش معهم في ڤيلتهم أو بالأحرى قصرهم بالقطامية، باءت بالفشل المتكرر ؛ لصلادة وإصرار العجوز على عدم ترك منزلها، وكأنهم يطالبون صلاح الدين بالتنازل عن بيت المقدس. خالد وكارول أرادا أن يقضيا الأمسية مع أمه، قبل أن يتوجها بعدها ليلًا ليبيتا، ويقضيا يوم الأجازة في ڤيلتهم بالعين السخنة.

خالد كان مصدر فخر وافتخار أمه دائمًا بما وصل إليه، والنجاح والمجهود الذي بذله، وهو يشق طريقه نحو رغد العيش الذي يتمتع به اليوم. تخرج في

كلية السياحة والفنادق، وقبل التخرج كان قد بدأ يعمل مندوبًا لإحدى الشركات بمطار القاهرة. لم يجد غضاضة في أن يحمل لافتة عليها اسم أو أسماء السائحين ليجمعهم، ويتأكد من ركوبهم أتوبيس الشركة، في طريقهم إلى فندقهم؛ أقل وظيفة في سلم وظائف السياحة. بعد أن تخرج، تدرج صعودًا من وظيفة إلى أخرى، وكان وقود صعوده تفانيه في عمله ودأبه، بالإضافة إلى قدراته وتفوقه في اللغات. كان من الطبيعي بعد حين أن يبدأ شركته الخاصة، وساعدته العلاقات التي بناها عبر السنين وخبرته الشاملة والعملية لأدق تفاصيل مهنة السياحة، والتي مارسها بيديه؛ ساعدته تلك الخبرة في بناء شركة، أصبحت المفضلة لدى الكثير من الشركات الأجنبية، التي حولت الأغلب من أعمالها إلى شركة خالد. سنين وسنين من البناء والكد والتعب، حتى غدا من كبار رجال السياحة في مصر، يملك شركته بالإضافة إلى فندقين في كل من شرم الشيخ والغردقة.

التقى كارول في مؤتمر السياحة العالمي في برلين، حيث كانت تمثل شركة سياحة أمريكية؛ وقعا في حب بعضهما، وسرعان ما تزوجا ليفاجئ أمه التي كانت قد يئست من أنه سيتزوج يومًا. أثلجا قلبها أكثر وأكثر، حين رزقا قبل خمسة أعوام بأجمل ما في حياتها: التوام آدم وسارة.

حين دخلا على أمه، قفزت السعادة من عينيها، وهي تملي النظر في وجوه أحفادها، وهم النغم إلى قلبها. كارول حاولت إقناعها أن ترافقهم إلى العين السخنة دون جدوى، آدم وسارة ظلا يتدللان على جدتهم، التي أتقنت فن إفسادهما دلعًا وحنانًا. دون أن يلحظ المجتمعين، انسحب خالد في هدوء إلى حجرته القديمة ليريح جسده قليلًا، قبل أن ينطلقوا إلى طريقهم.. لم يجد أبدًا سريرًا أكثر راحة ورقة على جسده من سريره في منزل العائلة.

لم يمض وقتا طويلا حتى كانت أمه تيقظه، طالبة إليه أن يمضوا في سبيلهم؛ حتى لا يتاخروا على الطريق: كالعادة قلب الام قدَّم سلامتهم على سعادتها بوجودهم حولها. لم يستطع خالد وكارول أن يخالفا فرمان الأم الذي صدر مصحوبًا بوجوب التنفيذ، فغادرا على وعد منها بأن تقضي معهم يوم الجمعة القادم في القطامية.

لم يلحظ عبد الله، وهو عائد من المسجد بعد صلاة العشاء، سيارة خالد، وهي تدلف من الشارع إلى شارع القصر العينى؛ فقد كان منهمكًا في قراءة وإعادة قراءة الرسالة، التي وصلت لمحموله أثناء الصلاة:

«إلى شباب الإخوان، على من يرغب في المشاركة في وقفة الغد الاحتجاجية أن يشارك بصفته الشخصية، لا بصفته عضو الإخوان».

أعاد عبد الله قراءة الرسالة مرارًا، وبه شيء من عدم التصديق أن يكون هذا موقف الإخوان المسلمين، وهو الذي كان يظن أن الجماعة ستعضد أي موقف، يعارض حكم الطاغوت الذي تعيشه البلاد. احتار أكثر من أن الجماعة قد تركت فرصة الخيار الشخصي لمن يريد المشاركة من الشباب. كان يفضل أن يكون الأمر واضحًا وأكثر تحديدًا من حيث الاشتراك من عدمه؛ هكذا تعود وهكذا أحب: الوضوح.

مازال عبد الله سارحا في الرسالة والأفكار التي راودته، حتى كاد كتفه يحك في كتف باسم، دون أن يلحظ، إلى أن استوقفه باسم قائلا:

- ألن تسلم عليَّ يا شيخ عبد الله؟

تنبه عبد الله لوجود باسم، صديق أجازات الصيف أيام الطفولة، حين كان ينزل مع والدته وإخوته ليقضوها في مصر؛ دائمًا دون أبيه الذي أدرك،

حين كبر، أنه كان قد نفى نفسه اختياريًّا إلى السعودية من وطأة الضغط على الإخوان المسلمين في مصر.

عبد الله: آسف يا باسم لم ألحظك؛ آسف يا أخي.

باسم: فيم أنت شارد يا شيخنا؟ حب جديد؟!

عبد الله: استغفر الله يا باسم.. أعوذ بالله..

باسم: يا عبد الله، الحب ليس عيبًا ولا حرامًا حتى تستغفر، ثم إني أداعبك يا رجل. المهم، كيف أحوالك وما أخبارك؟ ماذا أنت فاعل هذه الأيام؟

عبد الله: لا جديد يا باسم، مازلت أعمل محاسبًا في نفس الشركة، التي بدأت فيها منذ عام.

باسم: وما أخبار الرياضة؟

كان عبد الله، منذ الصغر، لاعب كرة ماهرًا، بالاضافة إلى مواظبته على الذهاب إلى الجمنازيوم؛ مما جعله مفتول العضلات بشكل لافت.

عبد الله: مازلت مواظبًا يا باسم، وإن كنت لا ألعب الكرة كثيرًا هذه الأيام.

باسم: ماذا أنت فاعل غدًا؟

نزل السؤال على عبد الله كالصاعقة، فردَّ مناورًا:

- لماذا غدًا بالذات؟

باسم: كنت متوقعًا أن تكون ذاهبًا إلى وقفة «يوم الغضب».. أنا ذاهب إن شاء الله.

عبد الله: لا، لن أذهب لأن ورائي بعض المشاوير، لابد أن أنجزها.. البركة فيك، وفي باقي الشباب، تقفوا عنا، أدعو لكم بالتوفيق إن شاء الله.

لم يتنظر عبد الله رد باسم، بل اقرأه السلام، وتابع سيره في عجالة وكثير من الحرج.

باسم، هو الآخر، بدأ يمشي عائدًا إلى بيته؛ مشى ببطء، وهو يفكر لما لم يجد حماسًا بين الجيران والأصدقاء لوقفة الغد.. ظل هذا الهاجس يؤرقه حتى آوى إلى سريره. وكان آخر أفكاره، قبل أن ينام، أن غدًا أكيد يوم جديد وأفضل.

في العجوزة، كان النوم يجافي شيرين، وهي لا تستطيع أن تكبل حماستها حول وقفة الغد، وأن مصر بشبابها قادرة على ما حققته تونس وشبابها، وأن لكل ظالم نهاية.. كان آخر مارأته قبل أن تنام اللافتة، التي أعدتها لتحملها في الوقفة:

« تغيير... حرية ... عدالة اجتماعية »

***

اليوم الثاني

الثلاثاء

٢٥

يناير

٢٠١١

لم يستطع باسم نومًا كثيرًا أو متصلًا في ليلته تمامًا كليالي امتحاناته. ومع الفجر، كان جالسًا إلى الكمبيوتر، متجولًا بين عدة مواقع، دأب على زيارتها خلال الأسابيع السابقة. على الفيسبوك، زار موقع «٦ أبريل» وصفحة «كلنا خالد سعيد»، كلاهما أكدا الدعوة إلى التظاهر والخروج؛ للتعبير عن الغضب وعدم الرضا الذي تضمه الصدور. استمع وشاهد عمر عفيفي يدعو ويؤكد إلى سلمية التظاهر، ويعطي الشباب نصائحه من وحي خبرته، كضابط شرطة سابق حول كيفية مواجهة قوات الأمن. أعاد باسم قراءة ما أحبه عن الثورات السلمية لإندونيسيا وأوكرانيا، وكيف استطاع الشباب تغيير حال بلادهم. استرجع في ذهنه أحداث ثورة ياسمين تونس، والتي كانت محفورة في ذاكرته. ابتسم وهو يستعيد ما يعرفه عن غاندي ومقاومته السلبية للاحتلال البريطاني؛ واتسعت ابتسامته، كلما تذكر تصورات أبيه عن استعمالات الشباب للإنترنت.. قطع تجواله رسالة من شيرين:

- هل أنت مستيقظ؟

باسم: نعم، ما الذي أيقظك مبكرًا؟

شيرين: نفس الذي أيقظك؟ هل أنت قلق؟

باسم: أكيد. اسمعي أنا قلق وخائف ومتفاءل وسعيد ومتحمس؛ كوكتيل!!!!!

- ممكن أطلب منك «شيء» صعب بعض الشيء؟

شيرين: أنت تأمر يا حبيبي ..

باسم: ممكن أذهب أنا للمظاهرات اليوم، وتبقي إنتي؟ لا أود أن تتعرضي لأي خطر.

شيرين: أليست بلدي أنا أيضًا؟ هل الظلم واقع على الرجال دون النساء؟

باسم: ولكن الموضوع قد يكون فيه خطورة.. أنت تعرفين كيف يتعاملون مع المظاهرات، وكيف ينكل بالنشطاء..

شيرين: هل سترضى إن طلبت منك أن تختبأ؟ أقول لك أنا لن أرضى بك إن اختبأت.. حبيبي نحن ذاهبون؛ كي نستطيع أن نخلق لنا، ولمن مثلنا، فرصة العيش بكرامة على أرض، المفترض أنها بلدنا..

باسم: كنت متأكد أنك سترفضين طلبي، لن أستمر في مجادلتك، غالبًا لأني أريد أن نكون معًا اليوم. ميعادنا في العاشرة كما اتفقنا؟

شيرين: إن شاء الله.. على فكرة يا باسم..

باسم: نعم حبيبتي..

شيرين: أحبك..

انصرف كلاهما ليستعدا ليومهما، الذي فقدا النوم وهما يفكران فيه.. أخذا يستعدان، وهما يتأرجحان بين قلق على ما هما مقدمان عليه، وتفاؤل بأنهما ومن معهما من أبناء جيلهم قادرون على إيصال أصواتهم وإحداث تغيير.

***

عندما انتهى عبد الله من صلاة فجره جماعةً في المسجد، قرر أن يعيد صلاة الاستخارة، التي كان أدّاها قبل نومه ليلة أمس، داعيا الله أن يهديه فيما كان يشغل قلبه : أيشارك في وقفة يوم الغضب؟ أم يلتزم برغبة الجماعة؟

حين انتهى، وجد صديقه محمود يقترب منه:

محمود: السلام عليكم يا أخ عبد الله، تقبل الله..

عبد الله: منا ومنكم يا أخ محمود..

محمود: مالك يا عبد الله؛ وجهك البشوش عبوس اليوم؟

عبد الله: بالي مشغول بعض الشيء، لا أريد شق صف الجماعة، ولكن قلبي يريدني أن أشارك اليوم في الوقفة المزمعة..

محمود: «وأطيعوا أولي الأمر منكم».. كبارنا أعلم منا، وهم أدرى وأوسع علمًا يا عبد الله.

عبد الله: ولكنها وقفة ضد الظلم الذي نعاني منه.

محمود: وقفة لن تقوم لها قائمة، لا نريد أن يصيبنا فشلها يا صديقي. سيجيء الوقت الذي تقود الجماعة فيه وقفة الخلاص.. لا داعي أن تكون في زورق لا كينونة له، ومحكوم عليه بالغرق.

عبد الله: ألا يمكن أن يكون انضمامنا لهم ضمانًا للنجاح؟!

محمود: وننجِّح من ليسوا منا أو من يدعون إلى ما لا نريد؟ هؤلاء ليبراليون ومنهم علمانيون أيضًا يا عبد الله؛ أتريد أن تقوِّي صفوفهم وتعلِّي صوتهم؟

عبد الله: ولكن مطلبهم هو مطلبنا، أليس الوصول إلى هدفنا هو المهم الآن، ثم أليس من واجبنا نصرة أبناء وطننا؟

محمود: الغاية لا تبرر الوسيلة يا محمود؛ سيأتي الوقت، حين يأذن الله أن نتمكن على صراطه المستقيم وعلى سنة رسوله الكريم، ﷺ.

عبد الله: إن شاء الله يا محمود.. إن نصر الله قريب..

بعد أن ترك عبد الله محمود، آخذًا طريقه إلى منزله، سيطر عليه أن ربما حديثه مع محمود هو إحدى علامات رد الاستخارة التي أداها لتوه. وحين ساوره هذا الإحساس، تبعه شعور ارتياح سرى في جسده، وقاده حين وصل المنزل إلى فراشه؛ ليغرق في نوم عميق، يستعوض به ما جافاه طوال ليلته.

***

كانت إلهام قد انتهت من إفطارها، وأخذت تجول البيت، وهي في حالة ملل وكسل. عبد الحميد كان قد اتصل بها؛ ليخبرها أنه سيمر عليها مساءً، طالبًا منها ألا تجهز عشاءً؛ لأنها أوحشته، ويريد فقط أن يتمتع بصحبتها، فابتسمت وهي الفاهمة لغرضه. فكرت أن تنزل لتزور أهلها، ولكنها صرفت نظرًا وقررت أن تظل في بيتها. تذكرت اللابتوب، الذي اشتراه لها عبد الحميد ففتحته، وكالعادة كانت أولى محطاتها هو الفيسبوك، كما اعتادت. وبالأصح كما أدمنت مؤخرًا. الأسبوع الماضي كله، لفت انتباهها الدعوة إلى يوم الغضب ؛ كانت إلهام متعاطفة جدًّا مع أسباب الدعوة.

فكرت في كل أصدقائها وجيرانها، وما يرزحون تحته من ظلم وفقر مدقع. الخاطر الذي سيطر عليها، كان أنها لولا فضل الله الذي أعطاها عبد الحميد سترًا وأمانًا، لكانت غالبًا من المشاركات في الوقفة. ولكنها أيضًا كانت تعلم أن الحكومة والشرطة لن يتركا مثل هذه المظاهرات، تستشري أو تزيد عن المسموح؛ هذا ما كبرت عليه إلهام هي وجيلها: كل شيء في حدود المسموح. معرفتها بعبد الحميد ونشاطه الحزبي، الذي طالما تباهى به، جعلها متأكدة أن وقفة الغضب تلك لن تزيد عن بعض هتافات، غالبًا ما ستعلو عليها هتافات من محبي الوضع الحالي، مضافا إليهم غير قليل من مدفوعي الأجر.. ضحكة علت بداخلها، وهي تستعيد زيارات زعماء الهتاف، الذين كانوا يزورون المكتب إبّان عملها مع عبد الحميد؛ ليقبضوا بدل استهلاك حناجرهم كما كان عبد الحميد يسمي ما يدفعه لهم. كعادتها، توقفت عند الصورة التي تداعب خيالها في صفحة «كلنا خالد سعيد»، صورته، وهو مبتسم، وكالعادة داهمها خاطران متتاليان، أولهما: أنه أشبه بفارس الاحلام الذي تمنته مراهقة، وثانيهما حزن يعتريها على موته بالوحشية، التي كانت عليها نهايته، حزن غالبًا ما فرت معه دمعة أو دمعتان من عينيها. كانت تحس مع الابتسامة، التي تزين وجهه، بحزن ونوع من الألم أو القهر في نظرة عينيه في الصورة، تمامًا مثل ألمها وقهرها على ما هي مضطرة لقبوله في مطلع حياتها. وسرعان ما أغلقت الكمبيوتر، وهي تحمد ربها على ما هي به من نعمة، لائمة نفسها على بطرها وحالها أحسن بكثير من غيرها؛ فهي وإن لم تعش حُلْمَ من في سنها، فقد تفادت على الأقل شظف وأشواك طريق هذا الحلم.

خالد سعيد كان الحاضر الغائب في أذهان كثير من المتظاهرين، وأعدادهم تتضاعف عند الظهر. ازدادت أحاسيس الثقة بين الوقوف، وترجمت هذه الثقة في ثبات وعلو الأصوات.. لم تكن هتافات حناجر، بقدر ما غدت قلوب، تصدح بما تجيش، وبما خبئته سنين.

«تغيير... حرية ... عدالة اجتماعية»

هكذا امتزجت الأصوات والتحمت بين الوقوف في شارع القصر العيني. باسم وشيرين كانا يهتفان، فيسمعان صوتيهما مكبرًا الآف المرات. كل مرة يرددان الهتاف، ينمحي جزء من مخاوف صباحهما حتى غدا أي قلق أو شغف ذكرى.. أحسا بألفة مع من حولهما، وكأنهما في وقفتهما منذ أمد، وبين أهل ليس بينهم غريب. شيرين كانت تقسم وقتها بين هتاف، ودعوة من تمر بهم إلى الانضمام إليها والهتاف معهم، لم تكن تصدق عظيم قدرتها على الإقناع؛ فهي لم تدعو أحدًا إلا واقتنع وانضم وزاد بصوته صدى الهتاف، حتى بدا لها أن كل من تمر به المظاهرة أكيد منضم إليها. تناغم الأصوات مع ارتفاع يد المتظاهرين في الهواء، وقبضتهم المغلقة في حركة متكررة على إيقاع ترنيمة وتكرار هتافهم كان يحرك القلوب ويحررها. باسم كلما نظر إلى شيرين، وجد الابتسامة التي في عينيها تضاهي تلك التي على شفتيها. لم يتوقف الزمن في هذه اللحظات، بل جرى وركض، دون أن يصيب أحد الكلل أو التعب.

كان كل من حولهما مألوفًا وكأنهم نسيج واحد، فهذا أخ وتلك أخت، ومن لم يشبه قريبًا فهو صديق أو ابن نسب أو صهر. تجمعت قلوب على رفض ولفظ الظلم، فترجمت الألسن هذا الرفض في صورة ملحمية رائعة.

قـوات الأمـن المركزي بلباسـها الأسـود اصطفـت أمامهم فـي صفين متتاليين، تقطع سـبل الوصول بين شـارع القصر العينـى وميدان التحرير.. توقـف المتظاهـرون واصطفوا الصف تلو الآخر، ومازالـت الحناجر تعلو بمـا في القلوب. ضبـاط الأمن المركـزي وقفوا خلف صفـوف جنودهم، يصرخون بأوامرهم، ويزيدون درجات انتباههم. الجنود عيونهم شـاخصة ومركزة على المصطفين أمامهم، لا يفكرون إلا فيما صاح به قائدهم، وهم يرفعون دروعهم أمام أوجههم، في وضع تدربوا عيه مرارًا وتكرارًا.

« تغيير ... حرية ... عدالة اجتماعية»

يليها:

«سلمية... سلمية... سلمية»

في رسالة صريحة ومنغمة للضباط وجنودهم.

مازالـت الأصـوات عفية، والأقدام تـزداد ثباتًا مع وصـول الأخبار عبر المحمـول بـأن شـوارع القاهرة ملآنـة بمثلهم ممـن فاض بهم. مـع توارد الأخبـار، ازدادت الثقة والطمأنينة. في الصف الأول، كان باسـم وشـيرين بجـوار بعضهمـا، بعينيهمـا تضاعـف التحفـز والاسـتعداد، الـذي خلقتـه صرخـات الضباط في عسـكرهم. كانـوا وكل من معهما يعرفـون إلى أين، وكيـف سـتكون وثبتهم التاليـة ، ولكنهم كانوا أيضًا يدركـون أهمية اختيار اللحظـة. لـم ترهبهم نظـرات الضباط ولم تخيفهم شـكل الهـراوات التي بأيدى الجنود، ولم يلحظوا أصلا كآبة منظر مدرعاتهم الجاثمة حولهم. بدا أن تكـرار الهتـاف قد أخرج معه كل بقايا خـوف، وأبقى فقط على الإقدام، ورفض الكبت الذي كرهوا اعتياده.

فـى لحظة لم يسـبقها اتفاق، بدأ المتظاهرون يجـرون في اتجاه كردون جنـود الأمـن المركـزي ، الجميع يركض فـي اتجاه واحـد، دون كر أو فر. الـكل يباغت الجنـود الذين فوجئوا أنهم لم يكونوا هـدف المهاجمين، بل كانوا عازمين على النفاذ من شبه الفراغ الذي بين الجندي وزميله. الضباط فوجئوا مفاجأة عسكرهم، ففقدوا النطق ومعه القدرة على إعطاء الأوامر، أو لعلهم لم يعرفوا أي أوامر، تعطى في مواجهة شباب أذكى وأكثر تنظيمًا.

عندما نظر باسـم نحو شـيرين وهو يهدئ من ركضـه، ويمد نحوها يده لتلامـس يدها، رأى من خلف وجهها، الذي أحبـه أنهم واقفون أقرب إلى وسـط ميدان التحرير. لم يكن الميدان الذي يمر به في معظم أيامه ذاهبًا أو عائـدًا إلـى بيته، بل كان وكأنه وصـل إلى مكان كان يداعـب أحلامه فقط، وازداد الحلم جمالًا، وابتسامة شيرين تزينه وتضيف إليه معانٍ.

***

كعادتـه أيـام الأجازة، صحا شـريف قـرب الظهـر، تثـاءب وتمطَّع في السرير، قبل أن يقوم خارجًا من غرفته، حتى وصل إلى الصالة ليجد والديه جالسـين أمـام التلفـاز. حين تدلـل على أمه طالبًـا فطوره، أفهمتـه أن عليه انتظـار أخيـه عادل ليأكلا وجبتهما معًا. تربية شـريف العسـكرية التي أتقن تفاصيلها سيادة اللواء والده، جعلته لا يناقش انتظار «صحيان» أخيه بحكم أنه الرتبة الأعلى. لم يجعله عادل ينتظر كثيرًا فقد انضم إليهم في جلستهم، قبل أن يعيد شـريف طلبه إلى أمه. جلس الولدان مع أبيهما ضابط الشـرطة المتقاعـد، يتابعان مـا تنقله قناة الجزيـرة عن مظاهرات اليـوم في القاهرة،

وكيف امتدت، بل بدت أعنف في السويس والإسكندرية. ساد الصمت جلستهم، وهم يستمعون للمعلق، يروي ويستزيد فيما يجري.

قطع الوالد حالة الصمت بقوله: أكنتم متوقعين ذلك يا عادل؟

عادل: التقرير مبالغ فيه كعادة الجزيرة يا أبي.. إنها مظاهرات مراهقين، سرعان ماسيملون ويبحثون عن شيء آخر يفرغون فيه طاقتهم .

الوالد: دع الثقة الزائدة في النفس.. الأفضل أن تحتاطوا.

عادل: إنهم متحمسون بعض الشيء ولكننا نعرف من يشعل حماسهم.. هم نفس المحفزين المعتادين؛ الإخوان، ومعهم إيران وأصدقاؤهم من حزب الله.

الوالد: يا عادل انظر إلى الوجوه التي تنقلها الكاميرا، هذه وجوه غير الوجوه المعتادة.. هؤلاء شباب غضبان على حاله، وليس شباب مؤامرة أو مدسوسًا.

شريف: يا سلام يا باشا يا قديم.. يا عادل، سيادة اللواء أعطاك تحليلًا للوجوه من خبرته.

لم يستسغ عادل أو والده محاولة استظراف شريف، وزاد من تجهمهم رنين تليفون عادل، الذي رد عليه فورًا بوجه كساه بالجدية الشديدة..

عادل: تحت أمرك يافندم.

.....

عادل: هل بدأ المقبوض عليهم الوصول للمقر؟

.....

عادل: مفهوم يا فندم، طبعًا سوف تكون لدينا اعترافات سريعة.

.....

عادل: لا أظن أنهم سيستطيعون الصمود طويلًا.. أظن أنه لا قدرة لهم على تحمل ما سيتعرضون له. لا تقلق يا باشا.. سنخرج منهم اعترافات بمن حرَّكهم، والجهات الأجنبية التي موّلتهم.

.....

عادل: سأكون في المقر في خلال ساعة، وسأوالي سيادتك بالأخبار أولًا فأول، تمام يافندم.

مع نهاية المكالمة، كان عادل متجهًا إلى غرفته، التي سرعان ما غادرها إلى باب المنزل، مسرعًا في طريقه إلى مكتبه.

***

عندما أشعل رامز سيجارته، وهو واقف على ناصية شارع القصر العيني، لم يلحظ وقوف عبد الله إلى جانبه، مراقبًا المظاهرات المارة أمامهم. رامز وعبد الله دائمًا ماكانت علاقتهما متوترة منذ الصغر.. عبد الله لم يكن متعودًا اختلاف ديانة رامز، الذي بدوره لم يكن يفهم كيف يكون لدى عبد الله كل هذا الاختلاف عن أصدقائه المسلمين الآخرين؛ لذا لجأ الاثنان إلى تغليف معرفتهم بالميزة، التي تتلاقى فيها شخصيتهما: الأدب الشديد والتحفظ. عندما انتبها إلى أنهما وقوفًا، جنبا إلى جنب، تبادلا التحية.. تحية مشوبة بالحذر والتوجس، وكالعادة، زادت لحية عبد الله هواجس رامز، في حين اضطربت مشاعر عبد الله قليلًا، وهو يرى

سلسلة عنق رامز الذهبية، التي يعلم أن الصليب يتدلى في أخرها، وإن لم يره.

عبد الله: أتظنهم محققين شيئًا بهتافاتهم اليوم؟

رامز: محاولة، أفضل من لا شيء .

عبد الله: ولماذا لا تحاول معهم؟

السؤال أربك رامز، وبالذات أن السائل عبد الله، الذي هو - ومن على وتيرته - أحد أسباب عدم المشاركة من جانبه.. لم يطل تفكيره، فردَّ قائلًا:

- أريد أن أتأكد أولًا أنها مظاهرات للأسباب والدوافع الصحيحة، قبل أن أشارك فيها.. كنت أنتظرك قائدها يا عبد الله!

عبد الله (مبتسمًا بأسى): وأنا الآخر كنت أتمنى أن أكون في صفوفها الأولى.

إجابة عبد الله أنهت الحديث؛ فحدوديات علاقتهما لم تكن تسمح بالتطرق للمزيد. صيحات المتظاهرين كانت ملاذ كليهما من الحاجة للحديث؛ فمع ترديد كل هتاف، كانت مشاعر الاثنين تهتز ومقاومتهما للمشاركة تتضاءل.

لم يدر رامز بنفسه إلا ورجلاه متسمرتان في مكانهما، وهو يردد بأعلى صوت:

«قوم يا شعب وقول الحق ... قول للظالم مرة لأ»

استمر رامز في الهتاف، الذي غيَّره المتظاهرون إلى:

«**تحيا مصر ... تحيا مصر**»

لـم يلحـظ رامز تحـرك عبد الله من جانبه وسـيره وسـط المتظاهرين.. عبد الله نفسه،لم يشعر بتحركه وغلبه الهتاف الذي أتى من قلبه.

«**يا حرية فينك فينك ... الطوارئ بينّا وبينك**».

عبد الله ذاب في الحشد بكل كيانه.. في لحظة ما بين هتاف وآخر، علا صوته مكبرًا، وتلا ذلك هاتفًا:

«**إسلامية ... إسلامية**»

سـمع صوت المرددين خلفه خافتا، وتبع ذلك هتاف من أول المظاهرة ينادي:

«**مدنية ... مدنية ... مدنية**»

دوى ترديـد الهتـاف الأخيـر، وكأنـه أيقـظ عبد اللـه.. تذكـر تعليمات الجماعة التي جاءت بها رسالة الأمس. في هدوء وبتؤدة تحرك جانبًا تاركًا الزخم، وعائدا إلى جانب الطريق ليستمر متفرجًا من على الرصيف.

***

شـمس الشـتاء الرائعة في العين السـخنة لـم تكن كافيـة؛ لتجعل خالد يخـرج من الڤيلا ليسـتمتع بجلسـة الحديقـة أو جمال البحـر الأحمر. كان شـاغله التنقل مـن قناة إخبارية للأخـرى؛ ليتابع ما يدور بالقاهرة. مشـاعر خالد كانت متباينـة بين الاندهاش والتعاطف مع ما يحدث.. الجزء الأكبر

من تعاطفه كان مع مصير الشباب الذي سيقبض عليه، وقلوب الأمهات التي ستنكسر على أولادهم.. كان يتابع المكالمات مع مسئولي شركته؛ للاطمئنان على أفواج السياح الموجودين، وأنهم بعيدون عن مسارات المظاهرات. أعطى تعليماته بإلغاء أي زيارات للمتحف المصري في هذا اليوم، وتحويلها إلى مزارات أخرى في اتجاهات أخرى من القاهرة.

كارول كانت موزعة وقتها ما بين مراعاة الأطفال في الحديقة، ومتابعة الأخبار مع خالد. لم تصب بالذعر بقدر ما تذكرت قراءاتها عن الثورة الإيرانية، وما حدث للأمريكيين الذين كانوا بالبلاد وقتها. لم تكن تريد أن تزعج زوجها بمخاوفها، وإن كان ما بنفسها قد وصله دون أن تقصد. وهي في الحديقة، اتصل خالد بمسئول الحجوزات بالشركة، وطلب إليه حجز أماكن على طائرة نيويورك المغادرة يوم السبت لكارول والأولاد.

بدأت كاميرات الأخبار تتنقل من مكان إلى آخر في القاهرة راصدة تطور المظاهرات.. من الجيزة عند كوبري الجلاء إلى كوبري قصر النيل، ثم مشاهد من شبرا، وكذلك من شارع رمسيس عبورًا إلى ميدان التحرير.. عندما انتقلت الصورة تبث من شارع القصر العيني، سارع خالد بالاتصال بوالدته. جاءه صوتها فرحًا ضاحكًا حتى أنه بادرها متسائلًا إن كانت تدري بما هو حادث على بعد أمتار منها.. زاد ضحكها، وهي تقول له إنها شهدت كل أنواع التظاهرات في هذا الشارع من يوم تزوجت أبيه.. ذكرته أنه بنفسه عايش مظاهرات وحظر تجول ١٩٧٧ و١٩٨٦ من شرفة منزلهم. استمر في قلقه طالبًا إليها أن تنتقل إلى بيته للأيام القليلة التالية. لم يفاجئه رفضها، وإن أذهله تصريحها بأنها لولا السن، لكانت وسط المتظاهرين، وأن أباه

لـو كان على قيد الحياة ، لكان أحـد المتزعمين. قبل أن يزيد طلبت منه ألا يضيع مزيدًا من وقتها؛ لأنها تريد متابعة المظاهرات من شرفتها.

عندمـا بدأت الأخبار تتواتر عن العنف في السـويس، أحس خالد بقلقه يشـتد. نـادى علـى كارول طالبًا منها أن تسـتعد للعـودة إلـى القاهرة، ولم تناقشه كعادتها، بل امتثلت في سرعة هذه المرة.

قبل أن يخرج من الڤيلا إلى السـيارة، ألقى خالد آخر نظرة على ما تنقله كاميرا قناة الجزيرة. بدأت الكاميرا تصور الميدان من بعيد ومن أعلى مبنى عاليًـا في الأغلب. بانورما واسـعة للكاميرا وضحـت حجمًا لا بأس به من الحشود؛ ثم مالبثت الكاميرا أن بدأت الاقتراب من الأرض، فبدأت الوجوه في الاتضاح رويدًا رويدًا.

***

مـن ضمن الوجوه التي التقطتها الكاميرات، كان وجها باسـم وشـيرين وسـط ميـدان التحريـر. لـم يكونـا يتوقفان عـن الهتـاف لحظة؛ شـحنات أحاسيسـهما بالظلـم والغربـة في بلد، تربيا أن يعشـقاه دون إبداء أسـباب، كانت كفيلة بألا يصيبهما تعب أو كلل.

الالتحام بين الوقوف كان دون تمييز؛ فقد وقفوا جميعًا دون أن يحسـوا بفارق ؛ فالكل مطالبه واحدة:

«ثورة ثورة مفيش رجوع ... ضد الفقر وضد الجوع»

ثم ما تلبث القلوب أن تتشجع وتثبت حين يهتفوا:

«عَلِّي وعَلِّي وعَلِّي الصوت ... اللي يهتف مش هايموت»

لـم يكن هنـاك وقت ليتكلموا.. كل ما تبادلوه فـي وقفتهم، كان نظرات الاطمئنـان على الآخر، التي سـرعان مـا اختفت مع الوقـت، وتغيرت إلى نظرات فرحة وفخر بما هم فاعلون.

الأعـداد في ازديـاد، وكأنهم في محطـة قطار بها أرصفـة وصول فقط، ولا يوجـد بها مغادرون. كلما زادت الأعداد عـلا الصوت، ليس من جراء كثرتهم، بقدر ما هو بسبب ازدياد ثقتهم وإحساسهم بعزوتهم.

لـم يحس أحـد بأن اليوم قد جرى بهم، حتى بدأت أجواء المسـاء تلف القاهرة. أدرك باسـم أنه قـد حان وقت الرحيل؛ حتى لا تتأخر شـيرين عن الوصـول إلـى بيتها. برغـم الطاقة التي كانـت مازالت بداخلهـا، لم تعانده شـيرين؛ خاصة وأن أمها كانت على اتصال مسـتمر بها، طالبة إياها بالعودة إلـى المنـزل موصيـة بـأن تتوخى الحـذر. لم ترد شـيرين أن تفسـد أنفاس الحريـة، التي تنفسـتها فـي يومها بنقاش حـول تأخرها حين تصـل البيت. الصمت السعيد غلب رحلة عودتها إلى المنزل، وبجانبها باسم الذي أصر أن يرافقها.

كانـا يدركان دون شـك أن اليوم الذي انتهى لتوه ما هـو إلا بداية.. كانا كلمـا اقتربـا مـن منزلها وابتعـدا عـن التحرير، تزداد وحشـتهما لمـا تركاه خلفهمـا، وإن أدركا أنهمـا عائدان إليه فـي الأيام التالية. القاهـرة وميدانها لـم يناما ليلتها تأوهًا من أصوات قنابل الغاز وطلقات الشـرطة التي ألقوها صوب المتظاهرين.

***

رامز مازال متمركزًا على رأس الشارع، وكأنه لجنة استقبال العائدين من التظاهرات من سكان الشارع.. حين رأى باسم عائدًا، اتجه صوبه مسرعًا.

رامز: ما الأخبار؟

باسم: عظيمة.. كان يجب أن تكون معنا.

رامز: لا أدري يا باسم.. أخاف أن أحلم فينقلب حلمي كابوسًا.. وضعنا غير وضعك..

باسم: أي وضع!! اليوم الكل كانوا مصريين. رامز، أنتم تستخدمون موضوع الأقلية على الكيف.. تارة أنتم مصريون وأصل أهل البلدة، وتارة أنتم مضطهدون.. يا أخي إن كنتم مضطهدين، فاهتفوا ضد مضطهديكم معنا، فهم نفس الأشخاص..

رامز: نحن أقلية فعلا يا باسم، ونحن فعلًا مضطهدون..

باسم: أي اضطهاد يا رامز.. انظر إلى حالكم، فقراؤكم كنسبة منكم أقل بكثير من نسبة الفقراء في مصر.. أغنياؤكم نسبتهم تزيد كثيرًا عن نسبتكم في التعداد. وهؤلاء الأغنياء يعطونكم الفرص حتى تستنفذوها، قبل أن يفكروا في تشغيل مسلم. ثم إن كثيرًا من الأغنياء ورجال الأعمال غير المسيحيين يرحبون بكم ويتغنون بقدراتكم. ناهيك عن أن نسبة الأميين فيكم أقل من النسبة العامة أيضًا، وهذا نحييكم عليه، ولكنها مصر التي أتاحت لكم التعليم دون تفرقة..

رامز: كلامك مرسل يا باسم، فأنت تعلم أن هناك أبوابًا مغلقة أمامنا، ولا يمكن أن تُفتح. هل تراني يومًا رئيسًا لمصر؟ هل يحلم دبلوماسي مسيحي بأن يكون وزيرًا للخارجية؟

باسم: بل حلم ووصل لأن يكون أمينا عامًّا للأمم المتحدة: أتذكر بطرس غالي، أم أنه مسلم!! أنا أيضًا لا أستطيع أن أحلم بأن أكون رئيسًا لمصر طالما تركناها تورث، ولكني تظاهرت اليوم لأغير ذلك.

رامز: وهل تضمن أن التغيير الذي هتفت له لن يطاردنا ويزيد اضطهادنا؟!

باسم: إنك تمارس ديكتاتورية الأقلية، تريد أن تضمن لك الأغلبية كل مطالبك، دون مجهود أو تضحية.. فإن أصابك بأس قبل أن تصلك طلباتك، صحت أنا أقلية مضطهدة. يا رامز أنت مثقف وقارئ جيد، دلني على بلد مماثل لمصر، حال الأقلية فيه أفضل من حالكم؟

حوار باسم ورامز لا ينتهي، ولكل منهم أحقياته وأسانيده، ولكن هذه المرة قطعه إرهاق باسم من جراء انغماسه في أحداث اليوم. وبينما هما يهمان بالانصراف، رأيا شريف مرتديا بدلة الأكاديمية، مستوقفًا تاكسي.

في التاكسي، كان شريف ينظر من النافذة متفحصًا الوجوه.. لم تكن تلك هي الوجوه التي على وصف عادل.. إنهم شباب مثله يراهم ويخالطهم حين يخرج مع شلته. أو هم ناس عاديون يمشي بينهم في الشارع، دون أن يلحظهم أو يلحظوه.. لاحظ أن بينهم بنات كثيرات سافرات، ضحك بداخله وهو يفكر أنهن قررن التخفي، فكشفن شعرهن حتى يضللن الأمن. من نافذة السيارة أيضًا، لاحظ وجومًا وقلقًا على وجوه ضباط الشرطة، ولكنه أوعز نظراتهم إلى طول ومشقة اليوم.

***

مع ركوب شـريف التاكسي، كانت سيارة عبد الحميد تركن أمام عمارة إلهـام.. يـوم الأجـازة الذي تمنـاه، تحول إلى يـوم عمل مرهـق طويل في الحـزب. الجميع كانوا على أعصابهم وازداد التوتر، حين فشـلوا في تعبئة أتباعهم ليتظاهروا متشـدقين بالنظام والاسـتقرار. كان يعرف أن متظاهري الحـزب لـن ينزلوا الشـارع من وحي حسـهم الوطني، وهم الذيـن اعتادوا أن يتفقـوا علـى الأجر قبل التحـرك. عبد الحميد قرر أن يـزور إلهام ليريح أعصابه قليلًا، قبل أن يعود للحزب ليواصل الاجتماعات الدائرة.

حين دخل على إلهام كعادته، أخذها في أحضانه، وأسـرع بها إلى غرفة النـوم.. بـدأ يقبلها ويلامسـها، وهو مسـتغربًا مـن خموله.. مـازال يحاول اسـتدعاء فتوتـه، التي تتلبسـه كلما جامعهـا دون جدوى؛ بـدأ القلق يعتريه والارتخـاء يسـيطر على جسـده. إلهام لم تتـوان في المعاونة فعـلًا وقولًا، ولكـن يبـدو أن فتـوة عبد الحميد في أمسـه كانـت غائبة.. فـي لحظة يأس صفعها عبد الحميد، حين همست في أذنه:

« لا تهتم، فهذا يحدث لأفضل الرجال»

قام فارتدى ملابسـه مسـرعًا إلى باب الشـقة. وهو يشـد البـاب بعنف، سـمع مذيع الأخبار في التلفزيـون يقول إن المتظاهريـن ختموا يومهم في ميدان التحرير هاتفين:

«الشعب يريد تغيير النظام»

***

اليوم الثالث

الجمعة

٢٨

يناير

٢٠١١

فتحت إلهام الكمبيوتر، وأخذت تحاول تشغيل الإنترنت دون جدوى.. الأربعاء توقف الفيسبوك عن التحميل، وبالأمس أصبحت الخدمة شديدة البطء، وكل ما استطاع أن يقوله لها مسئول خدمة العملاء، حين اتصلت، هو أن المشكلة عامة. أما اليوم فلا توجد خدمة أصلًا. نظرت إلى محمولها، وكلها رجاء أن ترى رسالة وصلت من عبد الحميد، ولكنها وجدت أنه لا يوجد خط أصلًا؛ أغلقت المحمول وفتحته، ولكن دون أن يتغير الحال: لا خط وبالتالي لا رسالة. لم تسمع صوته منذ زارها الثلاثاء، فقط وصلتها رسالتان مقتضبتان: واحدة الأربعاء والأخرى الخميس، وهو يرد سؤالها بعبارة واحدة: الحمد الله.

كانت صلاة الجمعة قد انتهت، وقد تعودت منه أن يتصل بها في طريق عودته للمنزل بعدها، فكرت أنه إن لم ينجح في الاتصال بمحمولها، سيجرب – بالتأكيد – رقم البيت. انتقلت إلى جانب الهاتف منتظرة، ثم مالبثت أن طلبت رقم محمول عبد الحميد، وسرعان ما ردت عليها الرسالة المسجلة بأن الرقم المطلوب خارج نطاق الخدمة.

نوع من الاستسلام استولى عليها، وهي تقلب قنوات التلفاز باحثة عما تشاهده، استوقفتها لقطة على قناة إخبارية رأت فيها متظاهرين، يهتفون في ميدان التحرير، وسمعت المذيع يقول إن الحكومة المصرية قد قامت بقطع خدمات المحمول والإنترنت.. سرى بداخلها نوع من القلق، وهي مازالت تتابع توالى الصور من أنحاء مختلفة من القاهرة، والمذيع ذا اللكنة الشامية

يؤكد انتشار المظاهرات في الإسكندرية والسويس وغيرها. لم تعد تدري ما الذي يجب أن تفعله، وإن اعتراها إحساس بنوع من الوحشة، وهي وحيدة هكذا في بيتها. لم يكن لديها شك في أن عبد الحميد سيحاول – بالتأكيد – الاتصال بها، وإن فشل، فبالتأكيد سيمر عليها ليطمئن أنها بخير.

استمرت في متابعة الأخبار التي استغرقتها واستغربتها، لم تر منذ ولدت هذا الكم الهائل من الناس يتظاهرون، هل تكون مبالغات من قنوات أجنبية كما يقولون.. حولت إلى القناة المصرية لترى ماذا تقول؛ فوجدت فيلمًا على قناة، وتسجيلًا لحفلة على القناة الأخرى.

حين نظرت في ساعتها، وجدت الوقت وقد جرى ؛ أين أنت ياعبد الحميد؟ الوحشة تزيد بداخلها، وتختلط بأحاسيس خوف. أمسكت بالتليفون، وطلبت رقم منزله، أرادت أن تطمئن عليه، والأهم أنها أرادت أن تقول له إنها بخير. كانت تعرف أنها إن سمعت صوته ستتوارى مخاوفها وتختفي ، كانت محتاجة لتلك الجرعة من السكينة، التي تصاحب سماع صوته الأجش. لم يطل رنين التليفون، حتى سمعت صوت سيدة على الناحية الأخرى ترد، في حركة خاطفة تلقائية وضعت إلهام السماعة، وداست عليها في مكانها وكأنها تؤكد وتتيقن من انقطاع الاتصال. دقائق وكانت تعاود المحاولة، هذه المرة جاءها صوت عبد الحميد من الطرف الآخر.. ابتسمت في خفر، وكأنه يراها:

– ألو ياحبيبي ، أنا إلهام..

ردَّ قائلا: من ... ألو ... ألو!!

قبل أن ترد جاءها صوت قفل الخط من ناحية عبد الحميد؛ للحظة لم تصدق أذنيها، فظلت تناديه معرِّفة نفسها حتى أدركت أن سمعها لم يخنها،

وأنه أغلق الخط. وهي تضع السماعة، كانت أصابعها تتحسس مكان صفعته لها يوم زيارته الأخيرة، ومن مكان اللطمة حركت يدها لتمسح الدمعة التي فرَّت من عينيها.

ضاق المنزل على إلهام، وشعرت بالاختناق، فقامت في عجالة تغير ملبسها لتذهب إلى منزل أهلها في صفط اللبن. سرعان ما كانت في الشارع، وفي خطوات قليلة، أصبحت على ناصية شارع القصر العيني.. أمواج من المتظاهرين وجنود متراصين ودخان يتصاعد وأصوات طلقات وهدير المحتجين: لوحة قاتمة جعلت الذعر يملأ قلبها ليجعلها تلف على أعقابها، وتعود أدراجها إلى منزلها. لم تستطع انتظار المصعد فاستمرت في جريها وخطواتها الوثابة، صاعدة السلم، قبل أن تجد باب شقتها لتفتحه وتدخل مسرعة. حين أغلقته، تأكدت من أنها أوصدت قفله بالمفتاح جيدًا، قبل أن تجد نفسها جالسة على الأرض، ساندة ظهرها على الباب، منهارة في البكاء.

***

فتحت كارول باب حجرة المكتب على خالد؛ لتجده متجهمًا عبوسًا، ونظره متسمرًا على شاشة التليفزيون، حتى أنه لم يلحظها واقفة تنظر صوبه. في هدوء، انسلت بجواره، وفي حب أمسكت يده، رد فعله كان نصف ابتسامة، سرعان ما عادت أدراجها ليغطيها العبوس، الغالب على قسمات وجه خالد في جلسته. ران الصمت لحين، وكلاهما يستمع بكل حواسه لتقارير السي إن إن عن المظاهرات العارمة، التي تعم مصر والعنف الذي يصاحبها. تقرير بعد تقرير وزاوية تحليلية تلو الأخرى، والأهم لقطات حية متتالية للصخب الذي يغطي مصر.

استجمع خالد أفكاره، ووجد أنه يجب أن يخطر كارول بقراره:

– لقد حجزت لك وآدم وسارة على طائرة نيويورك غدًا.

كارول: ماذا؟ لِمَ؟

خالد: أظنه أكثر أمانًا لك وللأطفال أن تكونوا في أمريكا الفترة القادمة.. أظن أن هذه الاضطرابات ستطول لبعض الوقت .

كارول: وأنت؟ أهو أأمن لنا أن نكون هناك وليس أأمن لك؟

خالد: لن أستطيع المغادرة معكم فلدي أعمالي، وكذلك أمي؛ لا أستطيع أن أتركها هنا وحدها.

كارول: خالد، لن أسافر.. أنا باقية هنا.

خالد: لن أقنع بعنادك هذه المرة.. أنا أدرى بما فيه مصلحتك ومصلحة وأمان أولادنا.

كارول: وأنا أدرى بواجباتي وأدرى بمشاعري. مكاني دائمًا إلى جانبك..

خالد: لا وقت للمشاعر والرومانسية يا كارول.. أنا واثق أن ما نراه في التليفزيون سيزداد سوءًا، وسيطول أمده. نحن وأولادنا لدينا مخرج: لنستعمله!

كارول: أي مخرج يا خالد، جوازات سفرهم الأمريكية؟ ولكنني أنا وأنت اخترنا أن نربيهم مصريين ؛ وجزء من تربيتهم وشخصيتهم يجب أن يكون أن يتعرضوا لما يحدث في بلدهم.

خالد: أنا يهمني أمنكم في المقام الأول، ثم إنهم أصغر من أن يعوا شيئًا أصلًا.

كارول: مـن يـوم أن ارتبطنـا ياحبيبـي، أصبـح أمني حيث تكـون أنت. واذا كان مكتوبًـا أن نعاني شـيئًا، فالأفضل أن أواجهـه وأنا متأبطة ذراعيك، لا بعيدة عنك الآف الأميال. أما قدرات من في سـن آدم وسارة على الإدراك فسيذهلك مداها.

خالد: ولكن....

قاطعته كارول: في مراسم الزواج في أمريكا ، يتعاهد العروسان أن يكونا معًا في السراء والضراء؛ هذا ما عاهدت نفسي عليه؛ لن تخلص مني بسـهولة يا حبيـب قلبـي. ثم إلى أيـن تظنـك مرسـلني؟ إلى وطني: وطني هـو أنت، وحيث تكون ياخالد. وطني الآن مصر!

لم يجـد خالـد ردًّا أو حجـة لما قالتـه زوجتـه، وإن امتلأ لها تقديـرًا وحبًّا، لاشعوريًّا ضمها إليه وقبلها. بعد لحظة أو أكثر قليلًا، سألته كارول:

– ماذا عن أمك؟ أسنتركها وحدها؟

خالد: سأذهب إليها لأحضرها؛ لتبقى معنا الفترة القادمة..

كارول: لن ترضى!

خالد: هذه المرة لن أقبل منها رفضًا، سأصر ولن أعود دونها.

كارول: لدي فكرة أفضل، ولا تتضمن صراعًا.

خالد: أعطيني إياها..

كارول: لننتقل نحن فنقيم معها!!!

لم تطل المناقشة، ولم تمض نصف الساعة؛ إلا وكانت عائلة خالد بحقائبها متوجهة للإقامة في شارع حسين حجازي؛ ولو بصفة مؤقتة.

كانت درجة غليان الشارع لا تقل عن التأجج الذي يملأ صدر رامز.. كان بداخله فوران، وكان صدره يموج بمشاعر لم يعد قادرًا على كتمانها.. كان يريد أن يكون مع من يقفون من أجل رد الظلم، لم يعد قادرًا على تقديم رغبات والديه في أن يستمر سلبيًّا. ثلاثة أيام من الصراع، وكبته مايراه صحيحًا جعلت أي أسباب عاطفية تتراجع بداخله، متوارية خلف ما أصبح مؤمنًا بوجوب عمله.

في خطوات صارمة، خرج إلى الصالة، حيث كان يجلس الأستاذ سامي والده.

رامز: بابا، أريد أن أتكلم معك.

سامي: قل لي يا صديقي، ماذا تريد؟

رامز: ما أحلى ذكرياتك من أيام الجامعة؟ ما القصة التي ظللت دائمًا ترويها علينا ، أنا ونادر أخي، بكل فخر؟

سامي: مدخل لئيم يا أستاذ! أيام مظاهرات الطلبة يا سيد رامز..

رامز: ولماذا ترفض الآن أن يكون لي مثلها؟

سامي: لأنني أرى الخطورة التي يمكن أن تتعرض لها.

رامز: وفي مظاهراتكم، ألم تكن هناك خطورة؟ ألم يكن النظام أشد ضراوة؟

سامي: يا ابني لقد سقط منا شهداء في هذه المظاهرات؟ أتريدني أن أقبل أن تتعرض لهذا؟

رامز: وبالتأكيد، جدي لم يكن يريد أن تتعرض لهذا.. ألم يكن يحبك بقدر ما تحبني.. يا بابا هذه بلادي وهي تستأهل أحسن بكثير مما هي فيه. لا يكفي أن نتغنى في حبها، يجب أن نقف لها. يا أبي، نحن رجال قانون، ودورنا أن نقف مع الحق وندافع عنه.

سامي: هذا كلام مثالي يا رامز.. الواقع بعيد عن هذا، والنظام سيقمع من يعارضه. وعندما تكبر ستعايش هذا بنفسك.

رامز: دعني أعيش مثالياتي، وأمرُّ بتجربتي بنفسي. أبي، إن النظام الذي سيقمع، هو نفسه النظام الذي يجب أن لا نرضاه ولا نقبله..

سامي: وهل ستغير النظام وحدك؟ هل مشاركتك هي التي ستحدث الفرق؟

رامز: لا ستغيره كثرتنا، النظام لن يستطيع الصمود، إذا ما تجمعنا ورأى إصرارنا. أبي، إنني لم أخالف لك رغبة في حياتي؛ ولذلك أرجوك أن لا تعترض على نزولي المظاهرات من اليوم.

سامي: وإن قبلت أنا، ماذا أقول لأمك؟

كان رامز قد وقف متوجهًا إلى باب الشقة، حين سمع سؤال أبيه الأخير، فالتفت إليه قائلًا:

- قل لها إن أبونا لم يكن على حق هذه المرة.

حين نزل رامز إلى الشارع، كان قد مضى على انتهاء صلاة الجمعة ساعتين أو أكثر قليلا. حماسته وشوقه دفعاه دفعًا إلى وسط الصفوف المتراصة في شارع القصر العيني. أحس بنفسه وسط أمواج من البشر، أعداد تتضاءل أمامها،

أعـداد مـن خرجوا في الأيـام السـابقة.. كانت الهتافات على أشـدها خارجة مـن القلـوب، أكثر منها من الحناجر، وكأن من خرجـوا يرحبون بانضمامه.. هدرت أصواتهم:

«الهلال مع الصليب ... بكرة يانظام غيرك نجيب»

علا صوت رامز مردداً مغلفًا براحة امتلكت وجدانه، ومالبثوا أن أعلنوا التحدي للكم الهائل من الجنود المتراصين:

«عسكر عسكر عسكر ليه .... إحنا في سجن ولا إيه»

لا خوف ولا قلق بين الهاتفين، فقد أصبحوا بعددهم وزخمهم ووقفتهم، كتفًـا إلى كتـف، دروعًـا وحماية لبعضهـم: تلاقي إرادي لمن لا سـابق معرفة بينهـم ووحدة هدف وفكـر، جعلتهم واقفين في أمان افتقدوه منذ سـنوات. أمـا رامز، فقد أحس بدفء لم يعرفه من قبـل في وقفته تلك؛ دفء واطمئنان كان آخر ما تصور أن يشـعر به، وهو يقف وسـط محتجين واقفين في تحدٍّ أمام قوات أمن متحفزة.

لم يـرض رامز أن يظل في الصفوف الأخيرة، فظـل يتقدم إلى الأمام، كلما وجد فراغًا يسـتطيع التقدم إليه. أثناء تقدمه اسـتوقفه نداء عليه بالاسـم.. لم يدر كيف سمعه في وسط الصخب. التفت إلى ناحية مصدر الصوت، فوجد باسم ناظرًا إليه، ووجهه مغطى بابتسامة واسعة، تحرك الصديقان، كل منهما صوب الآخر، فالتقيا في حضن طويل، أغناهما عن أي كلام.

كانـت قوات الأمن قـد اصطفت في وضع تأمينـي دفاعي، عدة صفوف متتاليـة خلف بعضها، وخلفهم مزيد من الجنود في وضع اسـتعداد لمسـاندة زملائهم عند الحاجة. كانت تعليمات هذه القوات واضحة لكل مراقب: ألا

يصـل متظاهـر إلى ميدان التحرير. لم يبد أن التعليمات كانت تطويق أو تفريق التظاهرة، بقدر ماكانت منعها من الوصول إلى مكانها المستهدف.

حين أصبحت المسـافة بين أول المظاهرة وآخرها أكثر من كيلومترين، بدا بديهيًّا أن تبدأ التحرك صوب الميدان. بدأ التحرك على أنغام الهتاف الموحد:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

وحينـذاك انفتحـت صفـوف الجنـود مـن منتصفهـا لتفتح الطريـق أمام مدرعـة لتتقدم.. المدرعة ذات اللون الأخضر القاتم تقدمت أمام الصفوف، ثـم مالبثت أن توقفت، وكأنها تلتقط أنفاسـها. المتظاهرون أيضًا، وَكأنهم في انتظـار حركـة المدرعـة التالية. لم يطـل الانتظار، فقد بـدأت المدرعة في ضخ ميـاه تحت ضغط عالٍ في اتجـاه المتظاهرين. المياه كان لهـا أثران سريعان، فقد فاجأتهـم وفرَّقتهم، فبدأوا - خاصة الصفوف الأولى - في التقهقر. ومع هذا التراجـع، بدأ التقـدم البطيء للمدرعة، ومن ورائهـا الجنود المترجلون، وفي الوقـت نفسـه، حاول المتظاهـرون أن يعاودوا تنظيم صفوفهم. في جسـارة، تقدمت مجموعة من الشباب ووقفت أمام المدرعة متحدين، ومع هذه الحركة غير المتوقعة، وضح أن سائق المدرعة قد أسقط في يده، بدا وكأنه يتلعثم حتى انتهـى واقفًـا ومـن خلفه توقـف الجنود. ويبـدو أن هذا التوقـف كان هو ما يبحث عنه المتظاهرون الذين بداوا في لحظة واحدة في رمي الأحجار أولًا على المدرعة، وثانيًا على الجنود الواقفين خلفها، والذين احتموا خلف دروعهم.

لحظـات ثقيلـة حلـت، وكأن المتناحريـن قـرروا أن يلتقطوا أنفاسـهم.. لحظـات قلـق وتوجـس وترقـب، مالبث أن كتـب نهايتهـا أن انشـق طابور العسـكر من جديد، كاشـفًا هذه المرة عن مدرعتين أكثر قُبحًا من سابقتهم..

تبـوأ مقدمة كليهما جندي، شـاهرًا مدفعه صـوب المتظاهرين. بدأ من لاحظ ذلـك من الواقفـين التحرك جانبًا متفاديًا مدى المدفـع الموجه نحو الجموع.. باسـم شـد شـيرين، وتبعهم رامز إلى جانب الطريـق. أثنـاء تنحيهم، بدأت أصـوات مدوية تغطي أي صخب آخر، وتبعها دخان كثيف. امتلأ الشـارع ومعه الصدور بدخان حارق حمضي.. أحسـت شـيرين برجلها تخونها، وهي تهوى حيث كانت واقفة.. أسرع كل من باسم ورامز يعاونونها، وهم يكتمون أنفاسهم درءًا للغازات المسيلة للدموع التي غطت الساحة. مد باسم يده إلى جيبه، وأخرج قارورة الخل، التي لم ينس إحضارها، وسريعا ما مسح بها يده، وأخذ في شمها قبل أن يضعها أمام أنف شيرين هي الأخرى لتستفيق.. فتح رامـز عبوة البيبسي، التي أعطاها إياه باسـم، ومسـح بهـا أعينهم هم الثلاثة؛ ليبدأوا اسـتعادة الرؤية مع انقشـاع الدخان ببطء عن الساحة. تحول الشارع إلى مايشـبه سـاحة القتال في العصور القديمة، وكل طرف من طرفي الصراع مصطـف أمام الآخر، دونما اشـتباك مباشر أو تلاحم. مـن الصفوف الخلفية للمتظاهريـن، تقدم دون وجل من لم يعانوا مـن دفعة قنابل الدخان الأولية، في الوقـت، الذي لملم من كانوا في المقدمة من وقعوا منهم، وعادوا بهم خلفًا إلى الأمان.

مـازال المتظاهرون يقذفون غرماءهم بالطوب بـكل ما بهم من قوة، وإن كان سلاحهم غير مؤثر. في الوقت ذاته بدأ صف جديد من العسكر يصطف حاملًا سـلاحًا جديدًا، ومـن ورائهم مازال قاذفو قنابـل الدخان في وضعية الاستعداد.

كانت شيرين الأكثر تأثرًا من أثر قنابل الدخان والغاز المسيل للدموع، ولكن خل وبيبسي باسم أعاداها سريعًا إلى أقرب مايكون من حالتها الطبيعية. تنحى باسم ورامز بها على رصيف قريب، وهم يلتقطون أنفاسهم وكلهم إصرار على مواصلة الدفاع عن مكان وقوفهم، وكأنهم يدحضون الغزاة عن أرض مقدسة، بنفس التصميم والتحدي، الذي ملأ نفوس من حولهم.

على ناصية شارعي حسين حجازي والقصر العيني، تمركز شريف متابعًا ما يجري.. كان قد اختار لنفسه موقعًا، يستطيع منه تحليل الأحداث دون أن يتدخل. وفي ذهنه بدأ يلعب لعبة التوقع لما هو آت، وإن قصر توقعاته على خطوة رجال الأمن التالية، وهو يسترجع دراساته في أكاديمية الشرطة بخصوص مكافحة الشغب وطرق فض المظاهرات. لم يستغرق وقتًا طويلًا ليدرك أن تعليمات القيادات كانت تقضي بفض التظاهرات بأي طريقة، وبأي كم من العنف والقوة قد يحتاجونه. دلائل صحة حدثه وتوقعه ظهرت في التصاعد المستمر لأسلحة المكافحة المستخدمة، بدءًا من مدافع المياه، وانتهاءً بالقنابل المسيلة للدموع. ولكن شريف لاحظ أيضًا أن عزيمة المحتجين كانت وكأنها غير قابلة للانثناء. تذكر محاضرة علم النفس التي أطلعهم فيها المحاضر على أن أصعب المواجهات، التي ستجابههم في حياتهم العملية، ستكون مع أصحاب الرأي والعقيدة، ولكنه استغرب كيف تجمع مئات الآلاف على رأي وعقيدة واحدة هكذا؛ لم يستطع أن يتذكر درسًا يعالج حالة تناظر الكيان المتماسك، الذي يموج ويملأ الشارع أمامه.

فوجئ شريف بالمدافع التي بدأت تظهر في أيدي جنود الأمن المركزي، وكيف بدأوا في التمركز وأخذ تشكيلات هجومية.. كان قد تدرب على

استخدامها، إنها مدافع وبنادق معدة لإطلاق أعيرة مطاطية: إذًا الشرطة ستعلو بطريقة المكافحة درجة؛ لا، إنها ستعلو بها عدة درجات في خطوة واحدة. اعتراه قلق شديد، وهو يرى بين المتراصين من الجنود من يحمل أسلحة من ذات الذخيرة الحية.. لم يصدق عينيه، فأمعن النظر ليتاكد دون أدنى شك أن نظره لم يخنه: إذًا سيبدأ شوط المباراة الأخير.

قرقعة الطلقات جعلت الهتافات تهدأ، ومعها بدا هرج ومرج في صفوف المتظاهرين، فبدأ بعضهم في الالتفاف والجري إلى الوراء، في محاولة يائسة لتفادي الإصابة. دفع باسم شيرين بينه وبين رامز، وبدأوا في التقهقر، مشكلين درعًا بشريًّا لها.. امتزجت المشاعر في داخلهم ما بين إحساس قهر، يتسلل إليهم من جديد، ومشاعر خوف على أنفسهم ومن يحبون، ولكن غريزة البقاء غطت فاستمروا في جريهم وسط الجموع، التي بدأت تتراجع. ولكن الانسحاب أبدًا لم يكن جماعيًّا فقد اتجه صوب المدافع مجموعة من المتظاهرين، في جسارة وتحدٍّ، وكأنهم لا يأبهون بالخطر المحدق. في وسط هؤلاء، لمح باسم صديقه عبد الله الذي انحنى أثناء جريه نحو الجنود؛ ليمسك بقذيفة دخان ألقوها لتوهم؛ ليعيد إلقاءها في اتجاه المعتدين. إقدام عبد الله جعل باسم يتوقف عن جريه، ترك شيرين تكمل جريها بجانب رامز، والتف متجها خلف من توجهوا نحو الجنود.. حين استعدل وجهته، وجد الكثيرين من المصابين أمامه إما رقودًا، وإما أنهم يجرون أرجلهم تحت وطأة الألم إلى الخلف.

ثوان وهو ينظر حتى أحس بوخز ألم شديد، وقد أصاب رجله اليسرى أسفل ركبته مباشرة، مد يده ليتحسسها فغرقت دمًا من جراء الرصاصة المطاطية التي أصابته. كان رامز وشيرين قد تنبهوا إلى تخلفه ورائهم، وحين

نظروا يستطلعون أين ذهب، رأوا الرصاصة تصيبه. شهقت شيرين، وهي تجري ، نحوه، وإن سبقها رامز في الوصول إليه، في اللحظة التي سنده رامز، كان عبد الله يسنده من الناحية الأخرى، وهو يهمس في أذن باسم:

- بسيطة يا بطل، مطاطي! مطاطي!

شريف مازال يلحظ حالة التدافع والتدفق، التي استمر عليها المتظاهرون، وهو في غاية الاستعجاب. لقد غيروا وجهتهم دقائق قليلة، مع بدء إطلاق الرصاص، قبل أن يعيدوا توجههم إلى حيث بدأوا. خاب توقعه أن الرصاص المطاطي كان سينهي المقاومة؛ سوء توقعه جعله قلقًا ومتوجسًا من التالي.. كان على قناعة من أن الشرطة في هذا اليوم لن يوقفها شيء في سبيل تحقيق غرضها، وهدفها: فض المظاهرات وإخلاء الشوارع.. كان مازال يلحظ الأسلحة النارية التي يحملها الجنود، وخطف نظره أيضًا لمعان أسلحة بعض القناصة من فوق أسطح عمارة أو اثنتين.. جال بخاطره أن نهاية اليوم لن تكون سعيدة بأي حال من الأحوال.

أفكار شريف لم تطل، فقد استطاع سريعًا أن يميز أن هناك رصاصًا حيًّا قد بدأ يطلق.. بدأ نوع جديد من التساقط يحدث بين المتظاهرين، تساقط لايشبه سقوط وتألم مصابي الطلقات المطاطية، تساقط بتأوه مختلف، يتبعه في الأغلب صمت موت. كان المتظاهرون يشدون جرحاهم ومصابيهم معهم، غير مبالين بوابل الرصاص المطاطي وغير المطاطي، الذي غطى المكان.

على بعد أمتار من شريف، كان شابان يجريان في اتجاهه، محاولين إيجاد ملاذ من الأتون المفتوح.. الأسرع منهما وصل إلى حيث يقف شريف، أما ثانيهما فقد سقط فجأة قبل أن يصل إلى ما يمكنه الاحتماء به. سقط سقوط عصفور

مـن على غصنه، حـين أصابته طلقة صيّـاده. في نفس اللحظـة، هرع شريف وصديـق المصاب إلى حيث سـقط؛ كانت إصابته في أعـلى صدره من الناحية اليـسرى.. ثقب غائر جعل دماءه تتسـارع خارجة كالشـلال، فغطى لباسـه اللون القرمزى. الدموع كسـت وجه صديقه، وهو يسـند رأسه على صدره، في حين حاول شريف يائسًـا أن يوقف نافورة الدم المندفعة من صدره.. الألم الـذي كان يعتـصر المصـاب لم يمنعه أن يفتـح فمه؛ ليقـول لصديقه بصوت متحشرج، وإن وصلت كلماته مسامع شريف:

«إحنا صح !»

بعد هذه الكلمات جحظت عيناه وخمدت أنفاس صدره، سكن جسده في وسـط جو مشتعل.. سـحب شريف، معاونًا صديقه، الجثة إلى حيث الأمان الذي لم يدركه حيًّا.

عندما نظر شريف للجثمان الذي شـده لتوه، أحس بفراغ بداخله، وكأنه فقـد القدرة على الشـعور.. أحس أنه يريد أن يـصرخ، وفي الوقت ذاته، كان وكأنه قد حجب ذكرى ماعايشه بما في ذلك دماء الشهيد، التي غطته.

عندما رفع شريف رأسه وجد باسم وشيرين ورامز وعبد الله يصلون إلى حيث كان، لاحظ الدماء في رجل باسـم وثقل خطواته.. سـارع إلى صديقه، وهـو يدعو أن تكون رصاصته مطاطيـة لا نارية. توقف الجمع والتفوا حول مصابهم، شـيرين كانت باكية، في حين حاول باسم – في شجاعة – أن يغطي ألمه بابتسامة، تبث الطمأنينة في من حوله.

شريف: بسيطة ياصاحبي! مالك يا أستاذ والمظاهرات؟

باسم: الآن لديّ قصة أحكيها لأولادي، أليس كذلك يا أم العيال؟

رامز: تعال إلى الصيدلية كي نطهِّر جرحك.. لا نريدك أن تعود إلى البيت، وأنت تدمي هكذا..

باسم: أريد أن أوصِّل شيرين إلى بيتها، أولا ثم نذهب إلى الصيدلية..

في آن واحد، رد عبد الله ورامز:

سأوصِّلها أنا، فقط اذهب إلى البيت لترتاح..

شريف (ضاحكًا): اذهبوا مع الوجه الحسن، واتركوا لي هذا القبيح لأعيده لأهله!!

انطلق رامز وعبد الله مرافقين شيرين إلى منزلها، عبر الشوارع، التي كانت مازالت في خضم فورانها. لم يكن خيالًا، حين شهدوا قوات الشرطة في حالة انسحاب، والمتظاهرين في حالة تسيد للموقف. بدأ الظلام يغلف القاهرة، والهدوء يسود منهيًا يومًا عصيبًا للعاصمة.

شريف ساعد باسم على تطهير جرحه، ومن بعدها عاونه حتى باب بيته، حتى فتحت أم باسم الباب، فانسحب مفضلًا ألا يشهد لهفتها المتوقعة على ما حدث لابنها.. كانت الساعة تقارب السابعة مساءً، فأسرع خطاه نحو بيته لياخذ حاجياته، وينطلق إلى الأكاديمية؛ فقد انتهت أجازته.

حين وصل البيت، كان أول ما نبَّه عليه والده أن يتصل بأخيه، الذي اتصل أكثر من مرة، مؤكدا أن يطلبه شريف لحظة وصوله البيت.

من تليفون المنزل، طلب شريف رقم عادل المباشر في مكتبه:

شريف: ألو يا عادل..

عادل: شريف؛ اسمعني جيدا، وركِّز فيما أقول..

شريف: أفندم.

عادل: الأحكام العرفية فرضت، والجيش سينزل للشارع.

شريف: أحكام عرفية؟!

عادل:نعم.. أولًا لاتذهب إلى الكلية..

شريف: والغياب.

عادل: لا تجادلني، لن يكون هناك غياب أصلًا، اسمع ما أقول ونفذه..

شريف: حاضر.

عادل: يوجد مسدس لي في دولابي، خذه إلى حجرتك، وكن مستعدا لاستخدامه إن دعت الحاجة..

شريف: أي حاجة يا عادل؟ أنا لا أفهم شيئًا..

عادل: بدون تفاصيل، ولا مجادلة فارغة، ستحدث بعض الفوضى في البلد الأيام القادمة، وأنا لن أكون متواجدًا؛ لأني سأكون هنا في المكتب، فعليك تأمين المنزل والوالد والوالدة؛ مفهوم؟!

شريف: مفهوم.

سمع شريف عادل يضع سماعته، في حين أتاه من الخلف من شباك الصالة المفتوح، صوت المتظاهرين صادحًا:

«الجيش والشعب إيد واحدة»

***

اليوم الرابع

الأحد

٣٠

يناير

٢٠١١

ما بين ألم إصابته وأحداث الجمعة العصيبة، لم ينل باسم الكثير من النوم ليلتين.. حوالي العاشرة صباحًا، كان قد ارتدى ملابسه استعدادًا للنزول.. كان يعلم تمامًا أن نزوله إلى الشارع لن يكون أمرًا مستساغًا ولا مقبولًا من والديه، منذ عودته مصابًا أول أمس، ولكنه لم يكن على استعداد للخنوع أو الخضوع لمخاوفهم أو رغباتهم هذا الصباح، كان يعرف تمامًا أين يجب، وأين يحب أن يكون في هذا اليوم.

عندما خرج إلى الصالة حيث يجلس والداه، حاول أن يخفي عرجته؛ لتبدو مشيته طبيعية بقدر الإمكان، وإن لم يستطع.

باسم: صباح الخير.

أم باسم: صباح الخير ياحبيبي. كيف تشعر؟ أمازلت متألما؟.

باسم: أنا تمام يا أمي.. ما هي إلا جرح بسيط مثل جروحي أيام لعب الكرة.

كان يحاول تبسيط الأمر؛ حتى يخفف لهفة قلب أمه عليه.

الدكتور أحمد: كرة؟؟ لقد أصبت برصاصة ياباسم.. أحمد ربك أنها لم تصب عينك، أو اخترقت صدرك..

باسم: يا دكتور، لاتبالغ فهي مطاطية، إنهم يقصدون بها إرهاب الشباب المدلل فقط؛ شباب الفيسبوك وأمثالهم..

الدكتـور أحمـد: الموضوع ليس قابـلًا للدعابة يا باسـم.. لقد عرَّضت حياتك للخطر، ولكن ربنا ستر. وإلى أين العزم إن شاء الله؟ لا خروج لك اليوم، أنت محتاج للراحة.

باسم: لن أستطيع راحة يا أبي.. أنا ذاهب لميدان التحرير.

أم باسـم: مـاذا؟ مـرة أخـرى؟ أجننـت! أتريدنـي أن أجـن مـن قلقـي عليك؟!

الدكتور أحمد: ماذا جرى لكم ياشباب؟ ماذا تريدون؟ ألم تسمع خطبة الرئيس يوم الجمعة؟ ألم يغيِّر الوزارة استجابةً لكم؟

باسـم: ومال تغيير الـوزارة بما نطلبه؟ إننا لم نطلـب تغيير وجوه، نحن نطلب تغيير النظام.. نطلب تغيير الطريقة.

الدكتـور أحمـد: أي نظـام وأي طريقـة؟ لقـد وعـد بتحقيـق مطالبكم، والاستماع إلى ما تنادون به.

باسـم: ومـا هي طلباتنا، هل ذكرها أو أشـار إليها.. لم يقـل جديدًا فيما قال، لم تختلف الخطبة عن أي خطبة قالها في العشر سنوات الأخيرة، منذ بدأت أسمع خطبه.

الدكتـور أحمـد: ومـا النظام الـذي تريـدون تغييره؟ وهـل وقفتكم في الشارع ستغيره؟

باسـم: نريد أن تكون لنا حقوقنا فـي الاختيار، وأن تكون لنا فرصتنا في خير بلدنا، وأن تكون لنا المشاركة، فيما يخص مستقبلنا ومستقبل مصر.

الدكتـور أحمد: وماذا تعلمون أنتم؛ لكي يصبـح لكم كل هذه الحقوق والطلبـات؟ اسـمعوا كـلام الأكبـر منكم والأكثـر دراية وخبـرة.. لا داعي للشعارات البراقة، التي لاتؤتي بنتيجة.

باسـم: يـا أبي، نحن لـم نعد صغـارًا، ثم إن مـا نطلبه أصـلًا ليس حتى مطلب في بلاد كثيرة، بل هو حق يولدون ليجدوه، ولا يحتاجون أن يموتوا في سبيل الحصول عليه.

أم باسم: وأنت تريد أن تنزل لتلحق بمن ماتوا؟

باسـم: لا يـا أمي، أريـد أن أنزل وأقف مـن أجل أن لا يكونـوا قد ماتوا هباءً، وأريد أن أقف نيابة عنهم في غيابهم..

نبـرة وقناعة باسـم جعلت والديه يـدركان أنهما لن يسـتطيعا إثناءه عن مراده؛ فقط أوصته أمه قبل أن يخرج من الباب:

– عِدْني أن تعود للبيت إن بدأوا في ضربكم، وإطلاق النار مثل اليومين الماضيين.

لم تسمع لباسم ردًّا، فقط صوت الباب، وهو يغلقه خارجًا.

***

كان خالد ينهي إفطاره اسـتعدادًا للنـزول لمكتبه.. ككل بيت في مصر، كانـت الأحداث مسـيطرة علـى العقـول والأحاديـث بـدءًا بالمظاهرات، ومـرورًا بعنـف الشـرطة، وانتهـاءً بخطـاب الرئيـس.. كانت أمـه وكارول جالستين معه، والمناقشة حامية الوطيس دائرة بينهم.

كارول: هل ضروري نزولك اليوم والجيش في الشارع؟

أم خالـد: يا كارول في مصـر، عندما ينزل الجيش الشـارع، نصبح أكثر أمانًا.

كارول: لقد لاحظت أنكم جميعا سعدتم حين سمعتم هذا الخبر.. لقد اتصلتم بالأقارب تهنئون!!!

أم خالـد (مبتسـمة): صحيح، نحن نحـب الجيش ونحترمـه. لا توجد أسـرة فـي مصر، ليس لهـا علاقة بالجيش عبر السـنين: ضابـط أو مجند أو محارب أو شهيد، والجيش دائمًا يقف مع الشعب. في مظاهرات ٧٧ و٨٦ نزلوا الشارع، وضبطوه سريعا؛ لذلك تفاءلنا بنزولهم..

خالد: أرجو أن يعيدوا الهدوء سـريعًا. البلد والسياحة أصيبتا في مقتل؛ اللـه أعلم متى نعود حيث كنا.. عمومًـا، أرجو أن يكون خطاب الرئيس قد أراح البلطجية والمخربين الذين يتظاهرون..

أم خالد: أي بلطجية وأي مخربين ياخالد؟ أنا لم أر سـوى شباب فاض بـه يملأ الشـوارع، ثـم إن البلطجية هم مـن يضربون وينكلـون، وأنا رأيت الضرب في اتجاه واحد.

خالـد: أنا نسـيت إن أمي ثورية يـا كارول.. من إذًا الذي أشـعل النيران يا أمي؟ حتى الرئيس حذَّر من الفوضى، ولذلك استدعى الجيش..

أم خالد: اسـتدعى الجيش؛ لأن الشرطة فشلت ياخالد، وأخفقت لأنها لا تعرف إلا أسلوبًا واحدًا؛ أسلوبًا كله عنف وافتراء..

خالـد: لا ينفـع مـع الغوغـاء إلا هذا الأسـلوب يـا أمي، وإلا سـينهبوا البلد..

أم خالد: أي غوغاء ياخالد؟! اسـألك سؤالًا: وأنت تصل هنا بسيارتك الفارهـة وسـط المظاهرات، هـل اسـتوقفك أو حتى نظر إليـك أحد؟ هل أحسسـت بأي عدوانية مـن جانبهم، وأنت تمر بجوارهـم؟ لو أنهم غوغاء أو بلطجيـة، لفعلـوا ذلـك، ولكنهم لم يولـوك اهتماما أصلًا؛ لأنك لسـت هدفهم.

كارول: صحيـح يا أمـي؛ لقد لاحظت ذلك، وقد اسـترحت لنظراتهم، رغم أني كنت متوجسة خيفة حين نزلنا.

خالد: وكيف لاحظت كل هذا من البيت؟

أم خالـد: لقد حضرت مظاهرات هنا منذ عام 52 يا أسـتاذ: يعني خبرة! وحقيقي لا أتذكر مجموعة متظاهرين مثل من رأيت هذا الأسبوع.

خالد: عمومًا لا أظن أنهم سـيطيلون؛ لقـد أعطاهم الرئيس ما يريدون، والجيش سيعيدهم إلى منازلهم، ونعود لحياتنا.

أم خالد: ماذا أعطاهم رئيسـك؟! لاشـيء!! خطبة عصماء تصلح لكل المناسـبات بها كل الشـعارات.. تغيير الـوزارة ليس تنـازلًا أصلًا. أتعرف ياخالـد؛ الرئيس أخطأ توجيه خطابه.. الخطـاب كانت لغته للمصري قليل التعليـم، أو غيـر المتعلـم؛ الموجودين في الشـوارع شـباب جامعي، أكثر وعيًا، ممن ظن أنه واجب عليه أن يخاطبهم.

كارول: لـم أكـن أعلم أن حماتي محللة سياسـية بارعة إلى هذا الحد.. سؤال يا أمي: كيف تتوقعين أن تنتهي هذه المظاهرات؟

أم خالـد: لا أعلم يا كارول، ولكننا سنشـهد مباراة فـي العند بين الكبار والصغار، وربنا يستر علينا جميعًا من هذا العند، ويكفينا شره.

قام خالد فقبَّل أمه وكارول، وانطلق إلى مكتبه.

رعب إلهام مازال يعجزها عن النوم.. يومين بلياليهما، وهي تتابع القنوات الإخبارية، تنقل الأحداث دون توقف.. لم تستطع الاتصال بأهلها في تليفون البقال، الذي على ناصية حارتهم؛ لأنه ظل يرن دون رد. لم يفارقها أمل في اتصال عبد الحميد بها، وإن منعها ما تبقى من كبريائها أن تحاول هي الاتصال.

خطاب الرئيس لم يهز مشاعرها، فقد أحست أنه يلقيه دون مشاعر، وأنه لا يخاطب الشعب كما قال، بل يرسل تحذيرًا من الفوضى: لم يهدد وإن كان حذَّر، ولكنه كان خاليًا من المشاعر.. كانت دائمًا تتذكر عبد الحميد حين ترى الرئيس؛ كانت تعزو ذلك إلى الهيبة التي تستشعرها من الاثنين، بعد الخطاب.. أحست أنهما يشتركان في برود المشاعر، أكثر من الهيبة كما ظنت في السابق.

حين توالت أخبار الحرائق وانسحاب الشرطة ارتعدت فرائصها، وإن اطمأنت قليلًا حين بدأوا في نقل صور الدبابات في الشوارع.. الطمأنينة لم تستمر طويلا، وهي تسمع أنباء الهجوم على السجون وانطلاق المجرمين إلى الشوارع.. الأحداث كانت أسرع من قدرتها على الاستيعاب؛ مما زادها إنهاكًا.. كان الشعور المسيطر عليها مزيجًا من الوحشة والغربة في مكان أسمته يومًا بيتها.. لم تكن تدري ما الذي يجب عليها فعله، أو إلى أين يجب أن تذهب، أو بالأحرى إلى من تذهب.. خاطر تلو الخاطر يغزو رأسها فقط؛ ليزيد الرعب بداخلها؛ رعب وخوف من يُلْقى داخل قفص، يضيق عليه كل لحظة ليعتصره.

حيـن دق جرس الباب، مدت يدها في تلقائية، تعدل من حال شـعرها، وهي تظن أن عبد الحميد قد أتى، وإن مالبثت أن تذكرت أنه لم يدق جرس الباب يومًا؛ لأنه يستخدم مفتاحه دائمًا.

قامت لتفتح الباب، ولكن ذعرها أوقفها أمامه لتسأل: من؟

ردَّ الطارق: أنا الأسطى عزيز، سائق عبد الحميد بك.

ابتسمت إلهام سعيدة باهتمام زوجها، الذي ظلمته في ظنونها به.. مدت يدها، ففتحت الباب قائلة:

- اتفضل يا أسطى عزيز..

عزيز: شكرًا يا ابنتي..

إلهام: عبد الحميد أرسلك لتأخذني؟

عزيز: لأ يا ابنتي..

جزعت إلهام، وقالت: عبد الحميد جرى له حاجة؟

عزيز: لأ يا ابنتي، لا أدري ماذا ولا كيف أقول لك..

سكت عزيز لحظات، وكأنه يستجمع قواه، ثم استطرد:

- لقد سـافر هو وزوجته وأولاده هذا الصبـاح، وأنا راجع من المطار.. خطرتي على بالي، قلت لنفسي أمرُّ عليك وَأخبرك..

دموع إلهام كانت قد بللت وجهها كله، حين رفع عزيز رأسه لينظر إليها، بعد أن قال لها الخبر، الذي أتاها به.

نظر إليها عزيز نظرة أب حانية، وهو يقول:

- لا تبكي على نذل يا ابنتي، فهو لا يستأهل دموعك.

لـم يكـن لدى إلهام كلام تقولـه، فقط دموع انهمرت، ولـم يبدُ أنها إلى توقـف.. الأسـطى عزيز ظـل واقفًـا ناظرًا إليهـا في أسـى الأب على حزن ابنته.. دقائق مرت على كليهما في بطء سـنين، إلهام تبكي وعزيز يواسـيها بكلمات، بالتأكيد لم تسمع أيًّا منها.

عزيـز: أتأذنيـن لي بالذهاب يـا ابنتي؟ معك تليفوني إن احتجت شـيئًا، اتصلي بي، وسأكون عندك فورًا..

وكأن والدهـا هـو مفارقها، همسـت إلهام: أ يجـب أن تذهب؟ إلى أين أنت ذاهب؟

تلعثـم عزيـز قليلًا، وهو يرد بصوت خفيض: ذاهـب للتحرير، أقف مع الواقفين..

إلهام: ممكن تأخذني معك؟

حيـن نزلـت إلهام إلى الشـارع مع الأسـطى عزيز، كان عـم عبده بواب العمارة على أريكته الخشبية المتهالكة.. كانت إلهام دائمًا تحسن معاملته، مما جعله يسألها:

- إلى أين ياسيدتي في هذه الأجواء؟!

ردت إلهام: ذاهبة للتحرير مع الأسطى عزيز..

هب عم عبده من على الأريكة هاتفًا:

- خذوني معكم..

***

حين عبر رامز مابين الدبابتين، اللتين وقفتا على مدخل ميدان التحرير، وسط الجموع المارة إلى الميدان.. كان أول مافعله لا شعوريًّا أن تحسس ما بجيبه، وكأنه يؤكد لنفسه ماخطط لفعله.. استمر في خطواته متوجهًا إلى وسط الميدان. من لحظة دخوله، وهو يهتف مع من حوله بأعلى ما أوتي من صوت:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

مازال مستمرًّا في المرور وسط الواقفين، حتى وصل إلى قلب الميدان.. حينذاك مدّ يده إلى جيبه، وأخرج ما به.. الصليب الخشبي الكبير، الذي وضعته أمه في حجرته يوم ولد.. صليب قلما لبسه غير الرهبان في غير الأديرة.. علق رامز الصليب حول رقبته، ووقف مظهرًا إياه.. لم يمض وقت طويل، حتى كانت مجموعة من الواقفين قد لاحظوا ما فعل، فدققوا النظر إليه مشخصين ومشدوهين.

نظر إليهم رامز قائلًا: أنا أحببت أن أقول لكم نحن معكم ومنكم..

لم يدم الصمت طويلًا، حتى ردَّ أحدهم: نحن دائمًا واحد، ولا يوجد «نحن وأنتم»؛ حين يخص الموضوع مصر.

ما لبث أن كان رامز في حضن من رد عليه، واستمر حضنهما، وكأنهما أولاد بطن واحدة فرقتهم الأيام. وجد رامز نفسه من حضن إلى الذي يليه ثم فوق الأعناق، وهم يطالبونه أن يكرر ما قاله لهم للجموع:

- أنا هنا ومثلي كثيرين؛ لأننا إخوانكم في هذا البلد..

ثم وجد نفسه يهتف، والجموع من ورائه:

«يحيا الهلال والصليب»

«يحيا الهلال والصليب»

«تحيا مصر ... تحيا مصر»

لحظة نزوله من على الأعناق، تلقفه مذيع القناة الإنجليزية:

المذيع: ما الذي دعاك لتفعل ما فعلت؟

رامز: لأني أحب بلدي، ونحن جزء نابض منها..

المذيع: ألا تخشى وجود الإخوان المسلمين، وسيطرتهم على مصر؟

رامز: مصر بها إخوان ومسيحيون وليبراليون ويساريون، وكل الأطياف، وأظنهم جميعًا هنا اليوم.. كلنا هنا من أجل مصر.

المذيع: الكنيسة طلبت من الشعب المسيحي عدم الاشتراك..

رامز: أظن أن سيدنا البابا سيكون سعيدًا وفخورًا بي، وبكل مسيحي اشترك ووقف اليوم.

الفخر الذي ملأ عروق رامز لم يكن ليسعه وصف.. سريعًا ما عاد للانخراط في الهتاف، الذي تكرر، وكأن المتظاهرين قد أدمنوه:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

***

عندما شاهد خالد على شاشة تليفزيون مكتبه اللقاء مع الشاب المسيحي، من ميدان التحرير، اعتبر أن هذا أول شيء إيجابي رآه منذ بداية الأحداث.. لم تكن الأمور على ما يرام فيما يخص العمل، وعندما راجع

الرسائل التي وصلت إلى المكتب من الخارج في اليومين الماضيين، وجد أنها كلها عبارة عن إلغاءات لحجوزات الأشهر التالية. كانت ٢٠١١ قد بدأت مبشرة بموسم، أقل ما يمكن أن يوصف به أنه قوي.

صاحبت الإلغاءات حالة الذعر من الأفواج الموجودة في مصر، وحالة الفوضى التي أصابت المطار والطيران بصفة عامة.. كان رجال شركة خالد مرابطين بالمطار والفنادق مع أفواجهم، دون نوم في اليومين السابقين، وكان قد تبقى فوج أو فوجان، لم يستطيعوا ترتيب سفرهم حتى هذه اللحظة.

سرح خالد متذكرًا حادثة الأقصر عام ١٩٩٧ ، وكيف توقفت السياحة تمامًا من بعدها.. تذكر البيوت التي خربت، والعاملين الذين لم يجدوا الفتات ليعيشوا عليه.. تذكر الفنادق الخاوية، والأسعار التي اضطروا أن يقبلوا بها؛ حتى تدور العجلة من جديد. كانت فترة مؤلمة لا يريد أحد أن تتكرر، ولكن كان من الواضح أن الفترة المقبلة بعد ما يحدث الآن ستكون أشد عتامة وأكثر ظلمة.

بدأ خالد يراجع أعداد العاملين معه ومرتباتهم.. كان يريد أن يضع خطة، تمكنه من الاحتفاظ بأكبر عدد منهم، كانت هذه من ميزات خالد: حرصه على العاملين معه، ومعاملتهم كجزء من عائلة. ولكن خالد كان يعرف أنه مهما حاول، فإنهم كانوا سيتأثرون ويعانون؛ فالسياحة أبدًا ليست مهنة مرتبات؛ فسائق الأتوبيس مرتبه نسبة قليلة من دخله الشهري، الذي يعتمد على الحوافز، والمرشد بيته مفتوح؛ مما يدفعه السائح في نهاية الرحلة كمكأفاة على مجهوده. استمر خالد في تصور أحوال كل من يرتبط بصناعة

السياحة، في الفترة التالية، من أصحاب الشركات إلى سائق الحنطور في الأقصر، الذي لن يجد قوته.

استرعى نظره على شاشة التلفاز أن الأعداد في التحرير، في ازدياد مستمر، وأن دبابات الجيش بدت وكأنها تحرسهم وتؤمنهم ولا تمنعهم، كما كان متصورًا.

***

عندما وصلت إلهام مع الأسطى عزيز وعم عبده إلى الميدان، لم يكونوا يعرفون وجهة معينة أو غرضًا يقضونه.. فقط اغرورقت أعينهم مع كل هتاف سمعوه ورددوه، دون أن يشعروا:

«يا حرية فينك فينك ... الطوارئ بينّا وبينك»

«صح الخلق وهز الكون ... مصر بلدنا مش هاتهون»

فجأة، انفرجت أسارير عم عبده وصاح سعيدًا، وهم يتبعونه في اتجاه أحد الواقفين:

- يا دكتور باسم ... يا دكتور باسم

باسم التفت ليجد عم عبده يحتضنه، وكأنه لم يره عمرًا، وهو الذي يحييه كل صباح، وهو يمر من أمام عمارته.

باسم: منوَّر التحرير يا عم عبده..

عم عبده: التحرير منوَّر بالورد الواقف فيه يا دكتور. شرَّفتونا..

باسم: لأ، يا عم عبده، أنتم السبب إننا هنا..

عم عبده: تعبنا من القهر يا ابني.

باسم: كلنا يا عم عبده... كلنا..

عم عبده: ولكنكم رجال.. في يومين، حصلتم على مالم نستطعه نحن في سنين..

باسم: لم نحصل على شيء بعد يا عم عبده..

عم عبده: كيف؟ لقد كسرتم أنف الشرطة وغيرتم الوزارة؛ حتى لقد أجبرتم الرئيس على تعيين نائب بعد ٣٠ سنة من عناده..

باسم: ياعم عبده، تغيير الوزارة ليس مطلبًا.. المطلوب تغيير الطريقة، مطلوب كل واحد يأخذ حقه. كلنا أصحاب بلد، لسنا عبيد العزبة التي ورثوها..

أسطى عزيز: عندك حق يا ابني.. لكن الرئيس قال أمس إنه سيغير كل شيء، وستكون هناك عدالة..

باسم: وما الذي يجبره على هذا؟ ٣٠ سنة، وهو يعدنا بالعدالة ورعاية الفقراء، كل ما حدث أن زاد الظلم وزاد الفقراء، بل إن الفقراء أصبحوا أكثر فقرًا..

أسطى عزيز: ولكنه قال إنه سيغير، وعلى الأقل هو أعطانا دائمًا الاستقرار..

باسم: أي استقرار يا عم عزيز؟ استقرارهم هم.. إنهم مستقرون لدرجة أنهم يريدون توريثها لبعضهم.. لقد خدعونا سنين وسنين؛ ما الذي سيجعلهم يتغيرون الآن؟

عم عبده: ألم يعين نائبًا؟ إذًا لن يكون هناك توريث..

باسم: أنت قلتها! هو عيَّن نائبًا .. يعني يستطيع أن يغيره حين يريد.. ثم إن النائب من أتباعه إذًا سيخدمه. ومن قال إن التوريث انتهى؛ لم يذكر ذلك في خطابه. يا عم عبده.. دعنا نكون طيبين مع من يستاهل طيبتنا.. لقد استغلوا استسلامنا سنين، ولن نسمح بالمزيد.

قطع الحوار هتاف الجمع:

«مش هنخاف مش هنطاطى ... إحنا كرهنا الصوت الواطي»

إلهام وشيرين كانوا قد تعرفوا على بعض، وبدأوا حديث هن الأخريات، وكأن بينهن عشرة سنين ..

شيرين: كنت هنا أمس؟

إلهام: لأ.. بصراحة كنت في حالة رعب في بيتي.

شيرين: رعب؟ لم؟

إلهام: من الضرب والفوضى التي حدثت.. لقد أحدثت المظاهرات فوضى في البلد..

شيرين: ولكن المظاهرات لم تضرب أحدًا، ولم تحدث فوضى.. المتظاهرون هم الذين انضربوا، والشرطة هي التي أحدثت الفوضى.. لقد قتل الناس بالأمس؛ لأنهم أرادوا لصوتهم أن يسمع..

إلهام: قلبي عليهم وعلى أهلهم..

شيرين: بالضبط، ولذلك أصبحنا الآن لا نستطيع أن نترك حقهم.. قتلهم أصبح دينًا في رقابنا لأهلهم.

إلهام: عندك حق.. آه من الظلم.... آه.

شيرين: هذا ما نريد الخلاص منه يا إلهام، الظلم.. لا نريد أن نقبل ما لا نريد. نريد حقنا في أن نختار، لا أن نجبر على شيء من أجل أن نعيش..

إلهام: وكأنك تقولين مابصدري.. طول عمري نفسي اختار.. نفسي ألا أكون مضطرة.. لابد أن نغير ما فرض علينا، دونما أخذ رأينا..

أحاديث هنا وأخرى هناك، واليوم يمر والأعداد تزداد.. الهتافات تعبر عما بالصدور من أحاسيس ظلم وغبن؛ لكل من يقف قصة، وقد تختلف أسباب تواجده، ولكن في الآخر الكل على قلب رجل واحد، وتحولت الأغراض المتابينة في ميدان التحرير إلى عقيدة:

كفانا ظلما

***

كان المساء قد حل حين وصل رامز إلى بيته. وحين فتح الباب، ودخل الشقة وجد أبوه وأمه في انتظاره.. كان متعبًا من طول اليوم وأحداثه.. الوقفة في التحرير أرهقت جسده، ولكنها أشبعت نفسه.. أحاسيس جديدة لم يشعرها من قبل.. كلها إيجابية وجميعها متفائلة.. كان يعلم أن التغيير قادم وأنه وأبناء جيله قادرون على الصمود والحصول على مطالبهم. لم يكن رامز في وسط كل هذه المشاعر الجياشة مستعدًّا، أو قادرًا على مناقشة جديدة حين يدخل البيت، فدعا، وهو يدخل، أن لا يكون أهله في حالة التحفز المعتادة؛ لمناقشته حول ما هو فاعله من مشاركة في المظاهرات.

لكنه فوجئ بابتسامات أمه وأبيه التي استقبلوه بها.. بعدما استحم، وغير ملبسه، جلس معهم لياكل ماحضرته له والدته مما لَذَّ وَطاب.

سامي: أ تعرف يا رامز، ما أصعب وأحسن قرار أخذته في حياتي؟

رامز (ضاحكًا): أنك أتيت بي إلى الدنيا..

سامي (وكأنه لم يسمعه): قرار الهجرة والحصول على الجوازات الكندية.

لم يكن لدى رامز رد، فالتهى فيما يلتهمه..

سامي: أ تعرف من اتصل بي اليوم؟

رامز: من؟ أخي نادر؟

سامي: لأ! السفارة الكندي.. اتصلوا بنا بما أننا من الرعاية الكنديين في مصر.

توقف رامز عن المضغ مستمعًا..

سامي: سيقومون بترحيلنا إلى كندا صباح الأربعاء القادم.. أبشر!!

رامز لم يبشر ... ولم يعلق.. خرج إلى الشرفة مسرعًا؛ لينفث غضبه في سيجارة يدخنها.. على مرمى النظر، رأى اللجنة الشعبية واقفة، تؤمن الدخول والخروج من الشارع.

***

شريف وعبد الله كانا على رأس اللجنة الشعبية للشارع.. شريف لم يكن قد نام منذ مكالمته مع عادل يوم الجمعة، ولم يكن يدري ما أقلقه

أكثر: صوت أخيه شديد الجدية، أم ما أتبع محادثتهم من انسحاب للشرطة، ومن بعدها تواتر أخبار اقتحام السجون، وانتشار أعمال البلطجة، أم صوت الرجل وهو يموت أمامه، وآخر ما يقول:

«إحنا صح»

طوال وقفتهم، لم تتوقف أحاديثه مع عبد الله ، كانا على طرفي النقيض في توجهاتهما، ولكن جيرة وصداقة السنين لم تكن لتهتز لاختلاف الأفكار.. عبد الله كانت لديه الأسئلة، التي لم يكن عند شريف معظم إجاباتها..

عبد الله: قل لي يا شريف، أين الشرطة؟ لماذا انسحبوا من الشوارع؟

شريف: لا أدري يا عبد الله، ولكنه في الأغلب قرار سياسي، بعد أحداث الأمس، لحين تهدأ الأمور..

عبد الله: ولكنهم هم الذين ضربوا وافتروا.. لم يهاجمهم أحد أصلًا..

شريف: كيف تقول ذلك، لقد أصيب منهم الكثيرين..

عبد الله: أي إصابات تهون مقارنةً بمن فقد حياته.. مازلت محتارًا، أفهم يا سيدي أن ينسحب الأمن المركزي، ولكن لماذا ينسحب رجل المرور والشرطي العادي.. هؤلاء ليس من المفروض أن يكونوا مسيسين..

شريف: لقد هوجمت الأقسام وحرقت.. لقد أصبحت الشرطة عدوًّا.. الغوغاء لا تفرق بين أمن مركزي ومرور.. عمومًا ، لابد أن يمضي يومان أو ثلاثة؛ لكي يعرف الناس قيمتنا..

عبد الله: إرهاب للنفوس يعني يا شريف!!!

شريف: سمها كما تريد.. لعلهم تعلموا من جماعتكم كيف تخيفون الناس بالدين!

عبد الله: أنت مخطئ يا صديقي؛ الداخلية هي من أرهبت الناس بديننا.. نحن ندعو من يريد الاستماع إلينا فقط، ودون عنف أو إجبار..

شريف: وتكفِّرون من لايسمع أو يرفض فكركم؟ ولماذا أنت هنا ولست في التحرير إذًا يا عبد الله؟ أ لأنكم لم تبدأوها؟ أيجب أن تسودوا وإلّا لا تشاركون؟ ألا ترى ذلك نوعًا من النفاق؟

عبد الله: هذا غير صحيح؛ لأن أساس الدعوة الترغيب وليس الترهيب.. ثم إننا لا نشارك لأن لكل وقت أذانًا؛ كبارنا يرون أن الوقت لم يحن بعد.. سنكون هناك حين يكون هناك احتياج لوجودنا، كل شيء في ميعاده بإذن الله..

شريف: وكبارنا يرون أن ننسحب يا عبد الله، فلمَ تحرمون علينا ما تحللونه لأنفسكم؟ من حق كبارنا الأمر والتخطيط مثل كباركم، أم هو حلال عليكم.. حرام علينا؟

عبد الله: قل لي يا شريف؛ ماذا عن موضوع السجون وفتحها؛ أ معقول أن تهاجم أربع أو خمسة سجون في آنٍ واحد، وكأنها خطة مسبقة؟ من وضع هذه الخطة ولمَ وضعت أصلا؟

شريف، طال صمته قبل أن يقول:

خيانة!!!!

غطّى على صوت شريف وعبد الله صوت تظاهرة، عائدة من التحرير، تردد:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

***

اليوم الخامس

الأربعاء

٢

فبراير

٢٠١١

الحقائب كانت متخمة، وكأن المسافرين مغادرون بلا رجعة.. رامز كان يحوِّل حقيبة تلو الأخرى من حجرات نوم أهله، وحجرته إلى جانب باب الشقة؛ تمهيدًا لتنزيلها وتحميلها في سيارة عمه، التي ستوصلهم إلى المطار. كان رامز يتحرك دون مشاعر، في ميكانيكية الآلة، منفذًا ما يُطلب منه، من داخله خواء وفراغ، فقد معه أي إحساس، سواء كان فرحًا أو حزنًا، معارضًا أو متقبلًا.. كأنه أوقف قدرته على الإحساس أو الشعور، عند تنفيذ تعليمات والديه المتتالية؛ للتأكد من إغلاق الغاز أو إحكام قفل شباك، أو ماشابه لما بدا أن غيبتهم عن بيتهم ستطول.

حين أتموا تحميل الحقائب في السيارة، ركب رامز خلف سامي بجانب أمه ، ومثل الطفل الصغير، ألصق وجهه في شباك السيارة، شاخصًا من خلاله.. الناظر له كاد يظن أنه يملِّي نظره، ويدقق فيما يراه، ولكنه – حقيقة – كان لا يرى ولا يعي شيئًا مما حوله.. كان عقله قد أخذه بعيدًا إلى أحداث الأيام الماضية، وما عايشه فيها، وكأنه شريط سينمائي، ضغط على زره، فبدأ استرجاعه المشهد تلو الآخر في تسلسل وتتابع، جعل مشاعره وأحاسيسه تموج بداخله. حضره من جديد كل شعور، أحسه منذ اشتعلت الأحداث: تردد ثم إقدام، خوف محاه فخر، وإصرار وثبات، شعور انتماء لمن وماحوله دون تمييز.. لأول مرة، منذ أخبره والده بقرار السفارة الكندية وإجلائهم، تسللت إلى وجهه نصف ابتسامة، وهو يستعيد الهتافات المختلفة، التي كان يشدو بها مع المتظاهرين في الميدان.

أصداء الهتافات التي ملأت رأسه، جعلته يتنبه إلى الشوارع، التي تطويها بهم السيارة. كانت القاهرة هادئة في ظاهرها، وكأنها اختارت ألا تكشف فوران المشاعر، التي لم تصبح نكبته كما اعتادت.. الشوارع كانت خالية إلى حد ما، يزينها في أماكن مختارة دبابات الجيش، في رسالة اطمئنان للناظر، المشاة بدا لرامز في ملامحهم تصميم، لم يعتده، والسيارات كانت وكأن سائقيها يتفادون ما اعتادوه من مواجهات.

تنبه رامز إلى وصولهم على مشارف المطار.. تواجد الجيش بدباباته وجنوده كان ظاهرًا للجميع، ووضح للكل سيطرتهم على مجريات الأمور. أعداد المسافرين بحقائبهم أمام المطار كانت مطردة، وكان هناك نوع من الفوضى المقننة لحركتهم، التي غلَّفتها نظرات القلق على وجوههم. توقف عم رامز بالسيارة أمام باب الدخول، ونزل سامي وعائلته في طريقهم إلى داخل المطار.

***

كان خالد مستيقظا وهو ملئ بالتفاؤل، بعد أن سمع خطاب الرئيس، قبل أن ينام ليلة الأمس.. جلس يشرب القهوة مع أمه، قبل أن ينطلق إلى مكتبه.

خالد: أظن خطاب ممتاز للرئيس بالأمس يا أمي؟ لا تقولي لي إنه لم يعجبك مثل سابقه..

أم خالد: لقد كان معقولًا ياخالد.. بالتأكيد أفضل كثيرًا من سابقه.

خالد: معقولا؟ لقد وافق على كل الطلبات، وأكثر قليلًا..

أم خالد: أي طلبات؟ إنه لم يتنازل عن شيء لم يأخذه أصلًا دون حق.. التعديلات الدستورية بطانته هي التي غيرتها، كجزء من محاولة توريث ابنه الرئاسة. أما إنه لن يترشح للرئاسة، فأمر طبيعي لمن في سنه، ولمن بدأت الأمراض تنهكه، ثم أي فضل في أن تنزل من على كرسيك بعد ثلاثين عامًا؟

خالد: وماله ابنه؟ إنه شاب متعلم جيدًا ومثقف.. مثال جيد جدًّا لمن يمكن أن يكون رئيسًا لمصر.

أم خالد: قد يكون شابًّا ممتازًا يا خالد، ولكننا لسنا في ملكية..

خالد: ولكنه أحسن البدائل الموجودة، إن لم يكن البديل الوحيد..

أم خالد: هذا ما حاولوا أن يلقنوه لنا.. ياخالد مصر بلد ولّادة زاخرة برجالها.. هل عقمت البلد دون هذه العائلة؟ أنت تبحث عن دوام الحال؛ لأنك تبحث عن الاستمرار والاستقرار لأوضاعك، ولكن يا ابني هناك آخرون، الوضع بالنسبة لهم غير مرضٍ، بل مؤلم في كثير من الأحيان.

خالد: هؤلاء من لا يريدون أن يعملوا أو يجتهدوا.. يريدون أن تقوم الحكومة بكل شيء نيابة عنهم، وهم كسالى.

أم خالد: لأ يا خالد، هناك الكثيرون المستعدون للاجتهاد، بل ويجتهدون فعلًا، ولكن دون جدوى ولا أمل.

خالد: أتدرين يا أمي، لقد اتصل بي مدير المكتب، وأخبرني أن جميع الموظفين يريدون أن ينزلوا اليوم إلى ميدان مصطفى محمود مؤيدين

للرئيس، واستمراره حتى نهاية مدته. أنا شخصيًّا سأنزل معهم، لقد خدمنا سنين، ومن حقه أن نحترم رغبته ونكرمه، مع قرب انتهاء خدمته لنا ولبلده. من حقه أن يموت هنا، كما أشار.

أم خالد: لقد مَسَّ قلبي حين قال هذا، وإن قالها كعادته، دون كثير من المشاعر.. لقد دمعت عيناي حين قال إنه عاش هنا وسيموت هنا.

خالد: عمومًا، حقه علينا أن نقول له إننا نقدره ونشكره على ما فعل لنا.

أم خالد: حماسك يا خالد يذكرني بأيام تنحي عبد الناصر.. خطبة واحدة جعلت هذا الشعب الطيب يملأ الشوارع، وهو يترجى ممن قاده للهزيمة والعار أن يبقى ويستمر.. كل من حكموا مصر يعلمون مدى عاطفية هذا الشعب، ويحاولون استغلال هذه العواطف لصالحهم.. ربنا يستر. الميزة هذه المرة أن هذا الرئيس ليس لديه جزء، على عشرة، من قبول ولا حضور ولا زعامة ناصر.

خالد: عمومًا هو خدمنا سنين، ويستحق منا أن نشكره على ما فعل.. ساذهب إلى المكتب، ومنه إلى جامع مصطفى محمود.. سأراكم بعد الظهيرة إن شاء الله.

***

الحديث عن خطاب الرئيس في الليلة السابقة كان متصلًا في كل بيت مصري، ما بين مؤيد ومعارض، ومتجاوب ورافض؛ حوارات مستمرة

وتحليلات مختلفة، تباينت على حسب وقع ما قاله في نفس كل مستمع: كما في مباريات الكرة، حين يصبح الثمانين مليون خبراء ومديرين فنيين.. غدا المصريين في صباح هذا اليوم، وكأنهم جميعًا من أساطين التحليل السياسي.

في منزل باسم، بدأ الحديث مع انتهاء الخطاب، واستمر بعد أن استيقظوا من نومهم، حين جلسوا للإفطار.

الدكتور أحمد: أظن أسباب وقوفكم في التحرير انتهت، كل طلباتكم أجيبت..

باسم: أي طلبات يا أبي؟ ماذا أعطانا في خطابه؟

الدكتور أحمد: ماذا؟ أ تمزح؟ لقد وافق على تعديلات الدستور، التي كنا جميعا نتمناها، كما أنه لن يرشح نفسه مرة أخرى ، ما المطلوب أكثر من هذا؟

باسم: ولماذا عدل الدستور من الأصل، لماذا أحلَّ العبث فيه من الأصل؟ وما الضامن أنه لن يرشح نفسه مرة أخرى؟

الدكتور أحمد: عدِّله يا سيدي كي يصل ابنه للحكم، أهذا ما تريد أن تصل اليه؟ الآن انتهى التوريث، لقد عين نائبًا وانتهى معه هذا المشروع. ما الضمانة التي تريدها أكثر من وقوفه أمام العالم كله وإعلانه أنه لن يرشح نفسه؟

باسم: أليس هو نفس الرجل الذي وقف أمام العالم أجمع واعدًا بانتخابات برلمانية نزيهة، منذ أشهر قليلة؟ إلام انتهت الانتخابات، التي تعهد بأن تكون نظيفة؟

الدكتور أحمد: زوَّرها من حوله يا باسم.. أكيد لم يكن يريدها مزورة.. المستفيدون ممن حوله، هم من تسببوا في ذلك.

باسم: ومن الذي أتى بهؤلاء الفاسدين ومكَّنهم؟ إنه مسئول عن أفعالهم، منصبه وصلاحياته المطلقة تجعل حسابه أيضًا على الكبيرة والصغيرة..

الدكتور أحمد: أنت تحمِّل الرجل بأكثر من طاقته.. كيف له أن يراقب كل ما يقوم به من حوله، هذا ليس بقدرة بشر..

باسم: الفارق يا أبي إني أظنه مشارك وموافق على كل ما تم. أبي، نظرية جيلكم إن زبانية عبد الناصر عذِّبوا المصريين دون علمه، هي وسيلتكم لتبرئة من أحببتم أو احتملتم، فوجدتم المسببات التي تبرئه وتخلي ضميركم.

الدكتور أحمد: وإلى متى ستستمرون؟ وما الذي يرضيكم لتتوقفوا؟ أنتم تتسببون في أذى للملايين، فكِّروا فيمن يعيشون يومًا فيوم، والذين لا يستطيعون حتى اليوم أن يقبضوا مرتب الشهر الماضي.

باسم: هؤلاء هم من نفكر فيهم.. هؤلاء بالذات نريد لهم أن يحيوا بكرامة في بلدهم، لا أن يعيشوا كالعبيد، دون أمل في جديد، يطرأ على حياتهم يحررهم من الساقية، التي هم مربوطون فيها كالماشية.. أما إلى أين: إلى أن نغير النظام، ونضمن هذا التغيير.

الدكتور أحمد: ووقفتكم في التحرير هي التي ستأتي بالتغيير.

باسم: حضرتك قلت إن الوقفة أتت بثمارها، ورغم أني لا أتفق معك في ذلك، لكني أتفق أنها بدأت توتر النظام.

الدكتور أحمد: ولكنه وعد بكل مطالبكم..

باسم: يا أبي، لقد ولدت لأجد هذا الرجل ونظامه يحكمون هذا البلد.. لـم أعرف غيره حاكمًـا، ولـم أعرف منه إلا الكذبة تلو الأخرى.. لكم حرية أن تنسوا كذبه وتصدقوه فيما يقول، ولكنكم لا تستطيعون أن تفرضوا علينا أن نفعـل مثلكـم.. نحن لم نر من هذا النظام إلا السـيء، منذ وعينا لم نر له حسنة..

لم يكن أيا منهم سيقنع الآخر برأيه، فكان وكأنهم اتفقوا على ألا يتفقوا، فما لبث أن قام باسم ليستعد ليوم آخر في الميدان.

***

عندمـا دخـل سـامي وزوجتـه وابنـه إلـى صالـة السـفر، كانـت تموج بالمسـافرين، وكأن مصـر كلها في حالـة نزوح إلى خارجها.. تسـمروا في أماكنهـم، محاولين أن يسـتطلعوا إلى أين اتجاههم. وهـو يدير نظره، لمح تجمعًـا حول ما بدا له أنه علم صغيـر لكندا، فبدأ يتجه إلى حيث وقف هذا الجمع، ومن ورائه زوجته ورامز.

وقفوا وسط التجمع يستمعون لما يقوله الرجل الواقف في وسطه، الذي وضح أنه المسـئول عن تسفيرهم، كان واضحًا أنه مصري من العاملين في السـفارة. كان يردد نفس الكلام: أن عليهم الاصطفاف في طابور، وأن كل من يحمل جواز سـفر كنديًّا سيسـافر إلى كندا في هذا اليوم، وأنه في نهاية الطابور، سيحصل حامل الجواز على بطاقة صعوده للطائرة.

رامـز كان يتفحـص من يقف وسـطهم، لم يكن بينهم الكثير من الشـقر أو ذوي الملامح الأوروبية، بل الأغلبية ملامحها شـديدة المصرية.. نفس

الوجـوه التـي ألفها وتعودها،كلهم يشـبهون جـاره أو صديقـه أو زميله في الجامعة.. هؤلاء كانوا أغلبية الوقوف، قليل منهم فقط من كان يسـتطيعون أن يقولوا إن كندا هي وطنهم.

دون أن يشـعر، كان رامـز قد خطا عدة خطـوات للخلف، فأصبح خارج الصف.. اسـتمر فـي مراقبته لوالـده ووالدته، وهم يتقدمـون في الصف من لحظـة إلـى أخرى. كلمـا وقعت عينيه على علـم كندا الصغيـر، الذي يلتف حوله الواقفين ؛ كان نوع من الحسرة يملأ قلبه، وكان عقله رافضًا أن يكون له علم غير الأحمر والأبيض والأسود، الذي ترعرع لا يعرف غيره علمًا. حين وصل سـامي إلى الموظف على المكتب، أخرج الجوازات الثلاث وقدمها له.. يبدو أن الموظف ساله عن رامز، فالتفت سامي حوله باحثًا عن ولده.

ما لبثت أعين سـامي ورامز أن التقت؛ نظر رامز إلى أبيه نظرة مصحوبة بهـزة رأس، وكأنـه يرفض دعـوة أبيه للاقتـراب.. الأب وكأنه فهم رسـالة العيون التي أرسـلها له ابنه، فأومأ له موافقًا، قبل أن يلتفت للموظف ويمد يده ليسـحب منه أحد الجوازات، طالبًا إليـه أن يعطيه بطاقتين فقط لصعود الطائرة.

همس سـامي في أذن زوجته: رامز لن يسـافر معنا، من فضلك احترمي وتقبلي قراره دون نواحٍ.. لقد كبر، وأصبحت اختياراته من حقه.

***

باسـم وشـيرين كانا يقفان في ميـدان التحرير ناحية جامـع عمر مكرم؛ حيـث اعتـادوا أن تكون وقفتهم اليوميـة، حينما انضم لهـم كالعادة – التي

أصبحت يومية - إلهام وعزيز وعبده.. عم عبده بادر «باسم» بسؤال، بدا أنه يحيره:

- لمَ وقفتنا يا دكتور، والرئيس وعد أنه سيترك الحكم في بضعة أشهر.. ألا نستطيع تحمله حتى هذا الوقت؟ حتى من باب احترام الكبير، أليس بكبيرنا؟

باسم: الكبير يا عم عبده لا يجور ولا يفتري.. ثم إذا كان هو يريدنا أن نتحمله حتى سبتمبر، لماذا ونحن الأكثر لا يذهب الآن ويلبي رغبتنا؟!

إلهام: ولكن ما الأذى الذي يمكن أن يحدثه في الشهور الباقية؟ لقد انتهى عهده!

شيرين: يا إلهام نحن نهتف كل يوم أننا نريد إسقاط النظام، وبداية إسقاطه هي إسقاط رأسه، ولو تركنا الرأس ستسلمنا إلى رأس أخرى تماثلها ومن اختيارها.. لماذا لا يتركنا نختار دون تدخل منه؟!

عزيز: كلامك مضبوط يا أستاذة، ولكن من أجل ما فعل للبلد، ومن أجل تاريخه ممكن أن نتسامح بعض الشيء في طريقة رحيله؛ هذا حقه علينا..

باسم: وهو يا أسطى عزيز تسامح معنا هو ورجاله، حين ظلموا وأفسدوا؟ ياعم عبده ويا أسطى عزيز أنتم تأتون إلى هنا كل يوم، هل رأيتم المخربين أو الفوضويين، الذين تحدث عنهم في خطابه؟ إنه كعادته يقول ما لايعني.. إنه فقط يحاول أن يهدئ الامور؛ حتى يتمكن منا هو ورجاله مرة أخرى، فينكّلوا بنا من جديد.

شـيرين: ثم لماذا يُطْلب من الملايين النزول على رغبة شـخص واحد. هـل هذا من العدل؟ هـل من العدل أن ننحني جميعًا أمـام عناده، ولا يقبل هو مطلبنا؟!

الميدان كان آخذا في الامتلاء كالعادة في مثل هذا الوقت، من كل يوم، وإن كانـت الأعـداد أقل قليلًا مـن المعتاد، حتى في أعيـن المواظبين على الحضور. الهتافات مسـتمرة، وأشهرها الذي يبدو أنه اتفقت عليه الحناجر والقلوب:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

***

عندمـا وصـل خالد إلى ميـدان مصطفى محمـود مع موظفيـه، وجدوا بضعة الآف، وقد سـبقوهم في الحضـور. كان الحاضرون متجمعين حول أحـد الأشـخاص، الذي أمسـك بميكرفون، يهتـف فيه تـارة ويكلمهم منه تارة أخرى عن أهمية الاسـتقرار، وضرورة احتـرام الرئيس الذي يعد رمزًا لمصـر.. كان الجميـع يوافقه على ما يقول، ويزيد مـن عنده ما يؤكد صحة كلامه.

تفحـص خالد الوجـوه، فوجد كثيرًا من الوجـوه المألوفة لديه ممن هم مـن محيطـه ، فمـا لبـث أن حيا كثيـر منهم، قبـل أن ينضموا إلـى بعضهم، ويبـدأوا فـي حواراتهـم. بعضهم أكـد أنه مؤيد لمـا قام به شـباب مصر في الأيام السـابقة، وإن كان عليهم الآن الاكتفاء بما أحرزوه من نتائج، وقبول

تنـازلات الرئيـس ووعـوده الإصلاحية. البعـض الآخـر رأى أن مايقوم به الشـباب هو هدم وتقويض لأمن واستقرار البلد، في حين تطرف فريق آخر فـي رأيه معلنًا أن مـن يقفون في ميدان التحرير ما هم إلا عملاء ومندسـين على البلد.. ماالتفق عليه الوقوف، كان أن اسـتمرار مايحدث في التحرير ما هو إلا وقف حال وضرر للأعمال، وسيخرب بيوتات كثيرة.

أحس خالد بالراحة وسط من وقف بينهم، وحدة فكر وغرض تجمعهم، جعلـه يوقـن أن سـبب وجـوده صحيـح وعقلانـي.. الهتافات التـي كانوا يرددودنها كانـت تعبر عن المكتوم في صدورهم، فمن في ميدان التحرير، ليسوا هم المصريين وحدهم:

«أهم أهم أهم ... المصريين أهم»

وحبهم لمصر تجلي، حين اغرورقت الأعين بالدموع، وهم يغنون:

«بلادي بلادي بلادي ... لك حبي وفؤادي»

وإن امتنعت بعض الأصوات عن ترديد:

«بنحبك يا مبارك»

تزايـدت الأعداد وإن اختلفت الوجوه بعض الشـيء عمن بدأوا اليوم.. كانـت وجوهًـا فيهـا نـوع مـن التجهم والشراسـة.. أنـاس ظن خالـد أنهم مختلفون عن بقية الواقفين، أناس لو أن الموقف طبيعي، لتفاداهم هو ومن مثله.

كما ازدادت أعداد من جعلوا «خالد» يداهمه شعور عدم ارتياح.. ازداد وفود بعض المشاهير من الفنانين والرياضيين، الذين سطعوا عبر السنوات

السـابقة، ومازالوا نجومًا. علـى جانب آخر من الميدان، وقف بعض خيالة نزلة السمان، يتراقصون بخيولهم على أنغام المزمار تأييدًا للرئيس.

الخطـب من على المنصة، ومن خلال الميكرفون غدت أكثر سـخونة، الكل يندد بما يفعله الشـباب بالبلد ويطالـب باحترام الكبير.. المتظاهرون تجاوبوا مع الكلمات الرنانة، وطالبوا بأعلى أصواتهم بالحفاظ على مصر، وأن يكتفي الجميع بما وصلنا إليه من مكتسبات في الأيام القليلة الماضية. مازالـت الخطـب النارية تتوالـى، حتى بـدأ البعض يعلن أن علـى الجميع التوجه إلى التحرير لنقل الرسالة إلى من يقفون هناك، وإن احتاج الأمر إلى تطهيره من الدنس، كما قال.

حيـن قرر خالد أنـه آن أوان الانصـراف، كانت بعـض جموع مصطفى محمـود قد بـدأت تحركها في اتجاه التحريـر، ومن أمامها خيـول النزلة.. كانـت أخر ملحوظات خالد، قبل أن يغادر، هـي أن الجموع المتحركة في أغلبها ممن لم يرتح لهم قلبه.

***

رنين تليفون شريف أفاقه من نومته، التي لم تطل بعد عودته عند الفجر، من نوبة الليل في اللجنة الشعبية.

شريف: ألو..

عادل: صباح الخير يا شريف..

شريف: صباح الخير يا باشا. ما الأخبار؟

عادل: لا جديد..

كانت هذه المكالمة من المرات القلائل التي أحس فيها شريف بأن نبرة صوت أخيه تخلو من ثقته المعتادة، التي يعتبرها البعض صلفًا..

شريف: أظن المواضيع إلى نهاية بعد خطاب أمس..

عادل: أرجو هذا. الأزمة عويصة بعض الشيء هذه المرة..

شريف: شباب الفيسبوك أقوى مما حسبتم؟

عادل: لو الموضوع شباب فيسبوك فقط لكان بسيطًا، ولكنه أكبر من هذا.. حاول أن تكون أكثر عمقًا ولا تأخذ كل الأمور باستخفاف هكذا..

شريف: سعادتك من قلت أنكم سترسلون لهم هراوات لينة رأفة بهم.. عمومًا ما تصورك؟ هل شارفت القصة على نهايتها؟ وكيف ستفضونها، والجيش هو متولي زمام الأمور الآن؟!

عادل: كف عن الأسئلة.. جهازنا ليس شرطة كما تظن ومازلنا موجودين.. قل لي ما أخبار لجنة الشارع الشعبية؟ هل كله تمام ومؤمن؟

شريف: كله تمام، الشباب الواقف معي متحمس، ويعمل وكأنه مدرب على التأمين منذ سنين، وبدون مزاح كثير منهم أفضل من الشرطة.

عادل: عظيم.. اسمع؛ أكلمك لكي أقول لك أن تظل منتبهًا اليوم.

شريف: منتبهًا؟ هل سيهرب مساجين جدد؟

عادل: شريف؛ قلت لك أن تكف عن المزاح واستمع إلى ما أقوله: أريدك منتبهًا اليوم، وأن تكون على رأس التأمين بنفسك، وتحت أي ظرف من الظروف لا تقترب من التحرير؛ مفهوم؟

شريف: حاضر.. ماذا تخططون؟

عادل: قلت لك أن تسمع فقط؛ اطمئن؛ الجميع سيعود إلى بيته اليوم..

لم يجد شريف فرصة ليرد أو يتساءل، فقد عاجله عادل بقفل الخط؛ فقام من سريره يستعد للنزول؛ ليكون على رأس اللجنة الشعبية كما أمره أخيه.

***

بدأ متظاهرو التحرير يستشعرون نوعًا من الحصار، يفرض عليهم من المداخل المختلفة.. بدأوا يرون متظاهرين من مؤيدي النظام، وهم يتجمعون أمامهم، وكل ما يفصلهم عنهم بضعة دبابات للجيش. هتافات المؤيدين تعالت، وكلها لوم إلى حد الإهانة والسب لمن في ميدان التحرير.. رد المتظاهرون بهتافاتهم المعتادة عن أن مظاهراتهم سلمية، ثم ما لبثوا أن ذكَّروا محاصريهم بما يجمعهم معًا:

«تحيا مصر ... تحيا مصر»

التوتر كان مغيمًا على الميدان.. كان من الواضح للعيان أن في الأمور أمورًا، وأنها ستتطور إلى الأسوأ.. لم يكن الواقفون يدرون ما يمكنهم أن يتوقعوا، وبالتأكيد لم يكن يطوف بحدسهم ما كانوا على وشك أن يشهدوه.

فجأة، شقَّت الصفوف خيول تركض، ويتبعها جمل أو اثنان، وخيالوها يشيحون يمينًا ويسارًا إما بأسواط أو بعصا، وقليل منهم بسيوف. تراجع الواقفون من وقع المفاجأة، قبل أن يستعيدوا رباطة جأشهم؛ ليبدأ الأجرأ

منهم في إنزال المعتدين من فوق صهوة جيادهم.. سرعان ما كان الراكبون قد طرحوا أرضًا وبدأ الوقوف يكيل لهم الضربة تلو الأخرى، حتى أعيوهم قبل أن يتدخل العقلاء؛ لينقذوا فرسان اللحظة السابقة من أن يُفْتَك بهم.

قبل أن يفرغ الجمع من مواجهة الخيول، كان هجوم آخر قد بدأ عليهم، ممن كانوا يحاصرون مداخل الميدان من ناحية ميدان عبد المنعم رياض.. كان المهاجمون يقذفونهم بالطوب والحجارة وكسر الرخام، كان واضحًا أنهم أتوا مستعدين لما هم بصدد عمله. الواقفون العزل أخذتهم المفاجأة، فبدأوا في التراجع أمام جحافل الزاحفين عليهم، وهم يلملمون مصابيهم الذين بدأوا التساقط. حين بدأوا يتجمعون حيث ارتدوا، حدث لهم نوع من التماسك، مكنهم من البدء في صد ورد الهجوم الضاري، الذي تعرضوا له، وبدأوا يستعيدون جزءًا من الأرض التي كانوا قد فقدوها.

الكر والفر استمر، وخطوط الفصل بين الفريقين ظلت متحركة، والحدود الفاصلة لم تثبت على حال.. كل من الفريقين استمر في قذف الآخر بكل ما استطاعوا أن يضعوا أيديهم عليه.

في وسط هذا الخضم، بدا تراجع متظاهري التحرير واضحًا حتى أنهم انحسروا في وسط الميدان في منطقة محدودة من الميدان.. من فوق أسطح العمارات بدأ تساقط القنابل الحارقة، من كل صوب على رؤوس من وقفوا في الميدان منذ أسبوع أو أكثر.

زاد تساقط المصابين وامتلأ المكان بعبق الدماء.. باسم ومعه عم عبده والأسطى عزيز.. كان همهم الأول تأمين شيرين وإلهام. سرعان ماطلب باسم من العجوزين أن ينسحبا مع الفتاتين إلى أمان شارع حسين حجازي..

لـم يعارضه عبده وعزيز، وبدآ في التحرك فـي اتجاه الأمان، وهما يحميان شيرين و«إلهام» بينهما. قبل أن يغادروا، طلب إليهم باسم أن يبلغا الدكتور أحمد أنهم بحاجة إليه؛ ليطبب من سقطوا من المصابين.

***

الرسالة على تليفون عبد الله كانت عاجلة:

«يرجى من شـباب الإخوان التجمع في ميدان طلعت حرب، في خلال ساعة، من أجل نصرة المعتدَى عليهم في ميدان التحرير»

عبـد الله والآلاف من شـباب الإخـوان تجمعوا قبل السـاعة في ميدان طلعـت حرب، وبـدأوا زحفهم في اتجاه ميدان التحريـر.. في طريقهم إلى الميدان، تسـاقطت أمامهم أي مقاومة لمن بدوا مستأسدين، قبل قليل على العزّل الذين اسـتهدفوهم بهجومهم . مع وصول فصائل شـباب الإخوان، بدأ نوع من التعادل في ميزان القوة يحدث ما بين الطرفين. سـريعًا ما قسَّـم عبد الله وزملاؤه أنفسهم ليبدأوا في التعامل مع المعتدين، فريق بدأ الصعود للأسطح؛ ليتعامل مع من ظلوا يلقون القنابل الحارقة في الساعة الأخيرة أو أكثر قليلًا، وفريق آخر بدأ يتقدم الصفوف ليقود رد وردع الهجوم.. سـريعا مـا بـدأ أثر تواجدهم في الظهـور ، وبدأ تراجع مؤيدي النظـام الذين أرادوا إخلاء الميدان.

ما زال الهجوم والدفاع متبادلًا بين الفريقين دون حسم لأي منهما، وإن كان النجاح المبدئي لمن بدأوا الهجوم قد اضمحل، واختفى تفوقهم الذي استمر لفترة محدودة، وما لبث أن اختفى. ما زال عبد الله وإخوانه يصدون الهجوم، ويسـتعيدون زمـام الموقف، الذي كان واضحًـا أنهم في طريقهم

للسيطرة عليه.. وجودهم جمع معهم ووراءهم، من كانوا في التحرير، موحدًا الجميع وبدأت خطوات أصحاب الحق تثبت.

***

طرقات عم عبده السريعة والمتتالية على باب شقة الدكتور أحمد، جعلت ضربات قلبه تتسارع، وهو يجري ليرى من الطارق.

عم عبده: اِلْحَقْ يا دكتور.. الأولاد المصابون كثيرون في الميدان، وباسم طلب حضرتك هناك لإسعافهم.

لحظات، وكان الدكتور أحمد حاملًا حقيبته، وهو يجري في الشارع في اتجاه الميدان.. حين رأه شريف مهرولًا بدأ لا شعوريا يجري وراء والد صديق العمر، وقلبه يتوجس خيفة من النظرة، التي كانت مرسومة على وجه «أبو باسم».

حين وصل أحمد وشريف إلى ميدان التحرير، أحسا عن حق أنهما حطا على أرض معركة.. لم يأخذهما وقت طويل، قبل أن يجد كل منهما طريقه إلى ما يستطيع المعاونة فيه: الدكتور أحمد انهمك في علاج المصاب تلو الآخر، فلم يستطع للحظة أن يرفع رأسه من كثرتهم، وإن أذهله التعجل، الذي كان فيه المصابون للعودة إلى صفوف من يدافعون عن المكان، الذي أصبح رمزًا لكفاحهم، أو بالأحرى للثورة التي كانت تسطر تاريخها على أرض الكنانة. قلب الدكتور كان يدمي مع كم الورود، التي قطفت في هذا اليوم البغيض فتحولوا شهداء، من خلال اعتداءات غير إنسانية على آدميتهم.

أما شريف فقد انضم إلى صفوف الثوار، وهم يدحرون من يهاجمونهم.. لـم يكن لديه شـك أو تردد لحظة في أي صف يكـون؛ قلبه كان دليله، ولم يتوجس وهو يقف في نفس الناحية، التي ضمت باسـم وعبد الله وشـباب جيله، ممن فاض بهم من الضيم.

العراك اشتد واستمر دون توقف إلى صباح الخميس؛ لينتهي كالمتوقع بثبـات أصحاب العقيدة، الذيـن دحروا ذوي الأغـراض الملتوية. في هذه الليلة الليلاء، لم تعلُ أصوات الهتافات، وإن كتمت في الصدور والأذهان هتافًا يعبر عما مرَّ به ميدان التحرير في يومه بليلته:

«أمن الدولة يا أمن الدولة ... فين الأمن وفين الدولة»

***

اليوم السادس

الثلاثاء

٨

فبراير

٢٠١١

خالد كان يرتشف قهوته، حينما فوجئ بطلب أمه:

«أريدك أن تأخذني معك للتحرير اليوم»

راح بـه عقله إلـى يوم آخر، وكأنه لـم يعي طلب والدتـه.. رجاء والدته أعاده إلى يومه الأول في التحرير: الجمعة الماضية.

بعد أحداث الأربعاء والخميـس، كانت مصر كلها مصابة ومجروحة.. الهمجية التي نقلتها الكاميرات إلى البيوت جعلت الإصابة شديدة والجرح غائـرًا. المصريـون لـم تتقبل فطرتهـم غوغائية الحدث، الـكل كان رافضًا للصـورة التـي رسـمها الرعاع عن شـعب، لم يرضه مـا فعلـوه. خالد نزل لصلاة الجمعة في الزاوية، التي في أول الشارع، مازال يتذكر ما قاله الشيخ في خطبته، وكيف أعجب بقدرة الخطيب على مسك العصا من المنتصف، وكأنه يترك لكل مستمع تأويل ما يسمع حسب ميوله.

بعد الصلاة، أحس خالد أنه لا يريد العودة إلى المنزل، فقرر أن يمشـي برهة في شارع القصر العيني.. كان لديه إحساس يملأ جوفه مرارة: إحساس بالندم أنه وقف، ولو للحظة يعضد ويشـد من أذر نظام، غدر بمن سـاندوه في ميدان مصطفى محمود، قبل أن يصلوا بيوتهم. نظام سـفلي أراد الفتك بشـباب، جريمتهم أن صوتهم عـلا.. خالد أدرك أنـه كان ضحية فخ دخله سـائرًا؛ تذكر الوجوه التي أقلقه وجودها في الوقفة إياها، وغدا متأكدًا بعد الهجوم البربري الذي حدث أن النية كانت مبيتة. مازال ماشـيا دون هدى،

وهو سارح في أفكاره التي آلمته ، حزنه لم يعد دفينًا، وكان الغضب يملؤه مما حدث في اليومين السابقين.. لقد ذهب إلى مصطفى محمود الأربعاء ينشد استقرارًا، ويطالب ألا تكون هناك إهانة لرمز، بل تكريم وجاوره في وقفته ولنفس أسبابه كثيرون، فإذا بالنظام الذي لوَّح لهم بالاستقرار ورمزه، يأتون بعمل وضيع، أخزى من نادوا بألَّا يمس؛ نظام غادر وبغيض لمن ساندوه، مثلما بيَّت على الغدر بمن عارضوه في التحرير. لم يدرك خالد أنه على مشارف التحرير، إلا حين بدأ يحس بازدياد الزحام من حوله فتسمر في مكانه.. لم يعرف ما الذي يحركه، ولكنه وجد نفسه وهو وسط الجموع مزاحمًا للدخول بين الدبابات، شاهرًا بطاقته، كما طلب منه ليجد من يفتشه معتذرًا، ثم ينفرج الزحام قليلًا فيصبح خالد داخل ميدان التحرير.. عيناه جالت بالميدان الذي أحس أنه لم يره من قبل، ليجد صور من تعرف عليهم من الشهداء معلقة، والجموع متجمعة هنا وهناك حول خطيب، أو آخر يقود الهتاف. كلما حط خالد نظره على صورة شهيد معلقة، طفرت من عَيْنيه دمعة.. لم يدر إن كانت شجنًا أم ندمًا.. دموعه غطت وجهه، بل وصوته الذي تعالى مع المتظاهرين، والقشعريرة تسري في جسده:

«الشعب يريد إسقاط النظام»

لم يعد خالد هائمًا على وجهه، بل أحس أنه في مكان طال اشتياقه له، وكأنه مهاجر حطَّ في وطنه، بعد غياب. لم يمض وقتًا طويلًا حتى سمع من يناديه من أهله:

- «خالد بك .... يا خالد بك»..

صـوت عم عبده كان مليئًا بالفرحة، وكأنه وجد كنزًا لم يتوقعه.. التفت خالد إلى الصوت ليجد نفسه في حضن عم عبده، وكأن الأشقاء التقوا بعد طول فراق.

عم عبده: هذا خالد بك جارنا..

قالهـا عم عبده لباسـم والدكتور أحمـد، وكأنه يزف لهـم مهنئًا وصول خالد.. صافح خالد الدكتور أحمد، وقبل أن يصافح باسـم، سمع عم عبده يقول:

- هذا باسم ابن الدكتور، أحد أبطال الميدان من اليوم الأول..

لـم ياخـذ خالـد يد باسـم التي مدها لـه، بل عانقـه، وضمه إلـى صدره قائلًا:

- أنا آسف..

مـن يومها وخالد من مرابطـي التحرير، وجوده أصبح خلاصه من ذنب مكان وقفته يوم الأربعاء الدامي، وهتافه اليومي رسالته لنظام تأكد من عدم جدواه.

أم خالد أوقفت شريط ذكرياته:

- أ سمعتني يا ابني، أريدك أن تأخذني معك للتحرير اليوم؟

خالد: طبعًا يا أمي، التحرير سيسعد بوجودك..

سكت خالد لحظة، قبل أن ينادي على زوجته:

كارول؛ سـآخذ سـارة وآدم معـي إلـى التحريـر اليوم.. هل سـتنضمين إلينا؟

***

شـريف لم يشـرك العائلة فيما واظب على فعله منـذ الأربعاء الماضي: الوقوف في التحرير.. لم يظن أنهم سـيفهمون أسـبابه، التـي لم يكن واثقًا من تمام فهمه هو نفسـه لها كلها؛ دوافع ذهابه عزاها إلى سببين: أولهما أنه أحس أنه أراد أن يكون واقفًا بجانب أصدقائه، مدافعًا عنهم إن احتاجوا، أما السـبب الآخر، فكان شعور ارتياح، بل أقرب للانشراح، كان يتملكه طوال تواجده في الميدان. لم يربط شريف بين وجوده في التحرير ، وعودته للنوم العميق، وتخلصه من رؤيا الشاب، الذي توفى أمامه ويؤكد لصديقه:

«إحنا صح!»

بعدمـا ارتدى ملابسـه وخـرج من غرفتـه، وجد أخوه عادل جالسًـا في الصالـة مـع أبيهم.. لم يكن قد رأى أو اتصل بعـادل منذ كلمه أخوه محذرًا إيـاه ألا يقترب من الميدان يوم الأربعاء المشـئوم.. لـم يجد بداخله ترحيبًا برؤيـا أخيـه، كما اعتاد أن يشـعر عندمـا يظهر مثلـه الأعلى فـي الصورة.. انضم إلى أبيه وأخيه في جلسـتهم. في البداية، فضل أن يكون مسـتمعًا إلى حديثهم، ولكن لم يستطع أن يتمالك نفسه طويلا، حين وجدهما يدردشان فيمـا لا علاقـة له بما تمر به مصر، وكأنهما اختارا أن يتحاشـيا الحديث في الأمور الجسام. مع أول لحظة صمت بينهما، كان راميا سؤاله لأخيه:

شريف: قل لي يا عادل ، ما الذى يحدث؟

عادل: ما الذي يحدث فى أي شيء؟

شريف: في البلد يا عادل! فيم تظن؟

عـادل: بعض الشـباب العابث يلهـو، وانضم إليهم مخربـون كالعادة.. وطبعا القوى الخارجية التي تعادي مصر تزيد الموضوع اشتعالًا..

شـريف: هـذا كلام التليفزيـون المصري يـا عادل.. لا يوجـد مخربون ولا أجانـب في التحريـر أصلًا، كلهم مصريون وشـباب مثلي، لا تحركهم قـوى أجنبية.. قل لي يا باشـا: لماذا انسـحبت الشـرطة؟ ومـن الذين كانوا يهاجمون المتظاهرين يوم الأربعاء الماضي؟

عادل: الشرطة انسـحبت كي يعرف الجميع أن الله حق! ويوم الأربعاء كان مؤيدو النظام يعلنون أن ميدان التحرير لا يمثل كل مصر..

شريف: يعني الشرطة تعمل لحسابه.. أليس واجبها حماية الشعب والجبهة الداخليـة وأمن وسـلامة الوطن، أم أنهم يضحكون علينـا في الأكاديمية؟ أم رأوا أن الشـعب محتاج تربية، فأرادوا أن يؤدبوه؟ قل لي يا عادل كيف يطلق شرطي النار على متظاهر، أعزل لا يهاجمه؟ أليس هذا قتلًا!!

عادل: بل هو تنفيذ أوامر قيادته، التي تعرف كيف تحمي الوطن.. مالك يا شريف متحمس هكذا؟

شـريف: يعنـي حين أتخرج، مطلـوب مني قتل أبريـاء دون تفكير؛ لأن قيادتي طلبت هذا!!

عادل: طبعًا أم تريد للغوغاء أن تسود..

شـريف: الغوغاء يا عادل هم البلطجية، الذين أرسلتموهم ليقضوا على من بالميدان يوم الأربعاء..

عـادل: يعنـي معارضـي النظام من حقهـم التظاهر ومؤيديـه لأ؟ ما بك يا شريف؟!

شريف: أتعرف يا عادل، المعارضون لديهم قناعات بما يفعلون، وعلى اسـتعداد للبذل في سبيل ذلك.. أما النظام، فلا أظن أن لديه محبين لدرجة

أن يقاتلوا من أجله ست عشرة ساعة متتالية.. هل تقاريرك تقول لك إن للرئيس من هم مستعدون للبذل من أجله حتى هذه الدرجة؟

عادل: دعك مما لا تفهم فيه يا شريف.. مازلت صغيرًا على استيعاب هذه الأمور..

شريف: أتعرف يا عادل، لقد كبرت ولكنكم لم تلحظوا، ربما لانشغالك بمراقبة المندسين والقبض على المخربين.. لقد كبرت للدرجة الكافية، لأن أعرف ماذا يحدث.. لأن أعرف أن ما حدث مخطط ومقصود، ولأعرف أيضًا أن الشرطة – فيما يبدو – اختارت أن يكون ولاؤها للنظام، وليس للبلد.

عادل: ما هذا الهراء الذي تقوله؟ أتريد لهؤلاء الخونة أن يقلبوا البلد. أتريد أن نسلمهم مصر؛ لكي يفسدوها!!

شريف: أكثر من الفساد الموجود، هل هذا ممكن أصلًا؟ الخونة هم من حاولوا الغدر، بمن مازالوا يهتفون «سلمية»، حتى بعدما سقط منهم من سقط.

والد عادل وشريف وجد أن الحديث احتد، وأنه كاد يصل إلى درجة مشادة.. كان ضابط شرطة متقاعدًا، وكان ولداه هما فخره، وهما يكملان مشواره ويتبعان خطواته في سلك الشرطة.. للحظة، فكر أن يسكت ابنه الأصغر احترامًا للاكبر، ولكنه وجد «شريف» على حق فيما يقول، وأنه يتكلم عن المثل، التي بدأ هو بها، وأنهى خدمته في جهاز الشرطة.. بصوت خفيض، تدخل قائلًا:

– شريف.. اترك عادل يرتاح، فهو لم يعد للبيت منذ أسبوع حتى الآن..

***

إلهام كانت تستعد للتوجه إلى التحرير؛ لتكمل وقفتها التي بدأتها منذ أسبوعين.. أسبوعان غير عاديين عاشتهما، وكأنها في رحلة عبر الزمن؛ فالشيء الوحيد الذي أصبح مؤكدًا في وسط الخضم، الذي تحياه إلهام أن الزمن قد تغير، وبالتأكيد لن تنتهي رحلتها إلى حيث بدأت.. بدأت الأسبوعين خائفة ومقهورة ملأى بالوحشة والوحدة، ويومًا بعد يوم تملكت مشاعر جديدة نفسها؛ لتطرد الوحشة من دخائلها، وتنير سرائرها بما كان يشق عليها أن تحسه، وإن أحسته يومًا فبلا تطويل.. ثقة وأمان فيما تفعله حيث تقف، وأمل في غد أفضل..

لم تستطع أن تفسر لماذا يغمرها في التحرير إحساس أمان، لم تكن تعرف أنه ممكن أصلًا. كانت تشعر أن من يحيطون بها دروعها ومظلتها، وأن الوجوه التي حولها عائلة كبيرة، فتحت لها ذراعيها وضمتها بلا شروط.. علمتها وقفتها الكثير والكثير؛ وكشفت لها أن كثيرًا مما قبلته، وتقبلته سنين، في الأساس، غير مقبول، وأن ما حاول النظام أن يصوره للشعب أنه هبة ما هو إلا حق أصيل، وأن إعلاء الصوت للمطالبة بحق ليس تطاولًا أو غلوًا، بل إن كتمان هذا الصوت أو توريته هو الظلم والضيم..

كانت كثيرًا ما تسترجع كم من تعرفهم، ممن عاشوا حياتهم يومًا بعد يوم، على أمل فقط أن ينقضي اليوم على خير؛ خوفًا من الحاجة لمواجهة مالا يطيقون. أحاديثها في التحرير جعلتها تدرك كم الناس، الذين حرمهم النظام من القدرة على الحلم؛ لم يسمح لهم حتى بحلم محدود، بل إنه ضن عليهم بأي قدر من هذه المحدودية. لم يكن الغنى والأموال والترف

فقـط هو ما خصَّ به هذا النظام شـركاؤه وحلفاؤه، بـل كان أن قصر عليهم حصريًا، دون الأغلبية من الشعب، حق الأمل في المزيد والأحسن، وكأنهم بشـر غيـر البشـر، وكأن بقيـة الموجودين علـى أرض البلد، إنمـا تواجدوا ليمـلأوا فراغات في خلفية الصورة، دون أن يجـرأوا على الوقوف بجانب الأسياد في المقدمة.

لم يعد عبد الحميد حتى ذكرى لإلهام، وكأن أيامها معه لم تكن أصلًا.. ابتسـمت وهي تراجع أخر مجموعة رسـائل بينهما.. ابتسامتها كانت تزداد كلما تخيلت وجهه يقرأ ردها على رسـالته، التي أرسـلها إليها يوم الجمعة الماضية، حين بعث لها رسالة على محمولها، يقول فيها:

«عـدت الثلاثـاء ومسـافر غـدًا.. مـررت بالشـقة أمـس، فلـم أجدك.. أوحشتيني.. أود أن أراك».

حين رأت إلهام الرسـالة، مادت بها المشـاعر لحظات، قبل أن تسـتعيد زمامها.. قررت ألا تنفعل أمام محاولات تسلل وعودة ما وعدت نفسها أن تنساه، وأن تلفظه وألا تقبله يومًا.. في هدوء ردت عليه:

«أوحشـتك؟ أم أوحشـك جسـدي؟ لعله حتى لم يوحشك، وإنما تريد تمضية الوقت حتى ميعاد سفرك؟ أنا في التحرير إن أردت أن تراني!!»

وهي تدوس زر الإرسال، كان هناك إصرار في إصبعها، الذي استمر في الضغط، حتى بعد أن اختفت الرسالة من على شاشة محمولها، في طريقها إلى عبد الحميد.

بعـد رسـالتها بثـوان، وجـدت نفسـها تكتـب، سـريعًا، رسـالة أخرى لترسـلها له.

ما إن انتهى عبد الحميد من قراءة رد إلهام على رسالته، حتى وجد رسالة أخرى منها تصله.. حين فتحها قرأ:

«ارحل ... ارحل»

***

«ارحل ... ارحل»

سارة وآدم التصقا بأمهما كارول، وهم مذهولون من زئير أبيهما وجدتهما مع الهتاف، الذي لفّ ميدان التحرير.. أم خالد، انهمرت دموعها، وهي ترى الشباب الذي قرر أن يثور من أجل حياة كريمة، منعها عنهم من كانوا من المفترض أن يوفروها. لم تكن أم خالد تظن أنها ستلحق باليوم، الذي يقوم فيه شعب مصر ليسترد ما اغتصب منه.. كانت قد دفنت في ذاكرتها وطنية هذا الشعب وحبه لبلاده، الذي يعجز المصريون أنفسهم عن تفسيره ، نفس الحب الذي اختزله النظام، ووجه سبل التعبير عنه إلى مباريات الكرة.

صور الشهداء أدمت قلبها وزادت دموعها، وحين نظرت إلى خالد، وجدت دموعه أيضًا وقد انهمرت بغزارة من عينيه، وهي التي لم تره يبكي من يوم دفنوا أبيه. ولكن أم خالد بدأت ترتاح، بل وتسعد بما رأته، فقد أحست بأن البلد في أمان، طالما أن بها شبابًا من عينة من امتلأ بهم الميدان.. سعدت أن ترى، وهي في أواخر العمر، وتطمئن أن مصر ستكون بخير؛ وكيف لا والجيل القادم على هذا المستوى من الفكر والعزيمة..

ماذا يمكن أن تحتاجه بلد، أكثر من جيل كهذا، لتستعيد المكانة التي سلبت منها!!

قادهم خالد إلى المكان الذي أصبح يقصده كل يوم؛ لتكون وقفته مع باسم وعم عبده ورامز والمجموعة، التي تحولت من جيران شارع إلى مجموعة ثورية مرابطة في انتظار الاستجابة إلى مطلبهم.. كان يرفع آدم وسارة فوق كتفيه بالتبادل؛ ليستطيعا أن يريا ما يحدث حولهما.. كانت سارة فوق كتفيه، حين اقترب منه شخص وضح أنه أوروبي، معرفًا نفسه أنه صحفي إنجليزي، جاء لتغطية الأحداث، وسائلًا خالد إن كان يمانع في إجابة بعض الأسئلة.

خالد: طبعًا، لا أمانع.. تفضل.

الصحفي: لماذا أنت هنا؟

خالد: أنا هنا من أجلهما (مشيرًا لآدم وسارة)، ثم من أجلهم (مشيرًا لصور الشهداء).. أنا هنا من أجل حق أولادي في أن يقولوا رأيهم، دون أن يقتلوا..

الصحفي: ماذا تعمل؟

خالد: أنا صاحب شركة سياحة..

الصحفي: إذًا أنت استفدت مما قدمه النظام كرجل أعمال..

خالد: أنا اجتهدت لكي أصل لما أنا فيه، والنظام قدم أقل القليل لمن لم يكن جزءًا منه.. لو أنك تعني أن ميسور الحال أو الغني لا ينبغي أن يكون هنا، فأنت مخطئ لأن الإنسان لا يحتاج للمال فقط ليعيش.. الوحيدون

الذيـن لـن يقفوا هذه الوقفة هم من فسـدوا أو اسـتفادوا من فسـاد، إن بقية المصريين يريدون حريتهم..

الصحفي: وإلى متى تنوي الاستمرار في الوقوف؟

خالد: إلى حين رحيل الرئيس بنظامه.

الصحفي: أو تظنه راحلًا؟

خالـد: بدائله محـدودة أو دعني أقول إنه بديلـه الوحيد.. هذه المرة لن تنفع سياسـته المعتـادة.. لقد قَلَبنا الآيـة هذه المرة.. لقد أصـر على عنادنا وتمرير رغبته ثلاثين عامًا، وهذه المرة سنصر - نحن - على عنادنا..

الصحفي: ألا تخاف من نشر ما تقول لو استمر النظام؟

خالد: كيف أخاف ومعي الملايين.. انظر حولك، لم يعد يوجد خوف، هنـا فقط كثيـر من الأمل.. لقد أوهمكم النظام وقائـده، وأوهمنا من قبلكم أنه مصر ومصر هو ، ولكننا في الأسـبوعين الماضيين اكتشفنا - وأنتم معنا - أن مصر بها ولديها الكثير ، مما لم يعرف النظام نفسـه بوجوده. انشر كل ما أقول من فضلك ..... اجعل سارة وآدم فخورين بوالدهم وببلدهم.

***

الفخر هو الإحسـاس الذي سـيطر على عبـد الله، منذ دخولـه الميدان مـع إخوانه عصـر الأربعاء؛ ليخوضوا المعركة مع الأمـن، ومع من حاولوا أن يعتـدوا على الثـوار، وينتصروا عليهم. كان من يومهـا مع المرابطين في التحرير، يبيت ليلته وسطهم، ويقضي اليوم متفاعلًا مع ما يدور فيما أصبح

أشـهر ميادين العالم فـي هذه الفترة. قرب المنزل من الميدان، سـمح لعبد الله أن يتسـلل يوميًا ليغتسل ويأكل «أكل بيتي» مع أمه، قبل أن يعود ببعض المـؤن لإخوانـه المعتصميـن. كان عبـد الله أيضًـا عضوًا فاعلًا في وسـط مجموعـة أصدقاء وجيران الشـارع، والتـي ازداد أعضاؤها يومًـا بعد يوم. وعنـد ظهر اليوم، جاءت وقفته بجانب رامز، لم يعد بينهم نفس كم الشـك والتخوف، الذي دائمًا ما غلَّف علاقتهما، وأوقف احتمالات نموها، وكأن وقفة الميدان كشـفت لكليهمـا أن بينهما نقاط تقارب أكثـر مما يتصوران. أصبح بينهما نوع مـن الإعجاب الصامت للآخر على وقفته ومثابرته، زاده أنهما وجدا نفسيهما متحدين على هدف وأمل واحد؛ وإن كان هذا التطور في النظرة للآخر لم يفتح بينهما حديث طوال الأسـبوع، وكأنهما يحاولان اسـتيعاب وهضم أبعـاد تقبلهما الجديـد لبعضهما البعـض.. كان رامز هو البادئ بالحديث، بعدما طال صمته وعبد الله في وقفتهما:

رامز (ضاحـكا): يا عبـد الله، هـل أعجبتك أنت وإخوانـك الإقامة في التحرير، فعسكرتم هنا؟

عبد الله (مبتسـما): حتى لو أردنا المغادرة، فلن يسـمح لنا الشباب بعد ما صلبنا ظهورهم، التي كادت تنثني.. وهل يضايقك وجودنا إلى هذا الحد يا رامز؟

رامـز: نهائيًا، بـل على العكس، أنا مقدر للدور الذي قمتم به. المهم ألا تطغوا أو تحاولوا السيطرة بناء على ما أنجزتوه.. كلنا لعبنا دورًا يا عبد الله، والثورة ستنجح بنا كلنا..

عبد الله: يا رامز، لسنا طلاب سلطة بقدر ما نحن طلاب حق، تمامًا مثل كل الواقفين هنا..

رامز: على فكرة ياعبد الله طلب السلطة ليس سبَّةً، طالما بالسبل الشرعية، وطالما لا ظلم لأحد من صاحب السلطة..

عبد الله: طوال عمرنا، نحاول أن نعمل دون تخفٍّ، ولكن أنظمة الظلم أرادت لنا أن نكون دائمًا في الخفاء؛ حتى تستطيع أن ترهب من لا يعلم بنا؛ جعلوا منا البديل المرعب..

رامز: ولكنكم تخيفون الكثيرين مما تريدون أن تفرضوه إن حكمتم..

عبد الله: ولمَ الخوف يا رامز؟ أسس شريعتنا هي نفس أسس شريعتكم، حرية عدل ومساواة بين البشر.

رامز: وإذا كنت أدين بديانة مختلفة.. لمَ يفرض عليَّ أن أعيش بشرع غيري!!

عبد الله: ومن قال إننا نريد ذلك.. إن الشريعة التي تخشون، هي التي تؤمن غير المسلم، وتفرض علينا حمايته فرضًا، وهي نفس الشريعة التي تحترم الغير، وتجعلكم تحتكمون لشرائعكم في تسيير أموركم..

رامز: إن هذا وطننا مثلما هو وطن لآخرين، ولا يجب أن تتحكم فيه مجموعة دون أخرى..

عبد الله: بالتأكيد، ونحن جميعًا هنا لنستعيد حقوقنا في الاختيار.. وحين نختار، لن يكون من حق من يقع عليه الاختيار أن يستبد أو يظلم؛ لأن حتى من لم يختره، ستكون له حقوق لديه.

رامز: أتدري يا عبد الله ما الأمر المضحك.. هو أنه لو اعتبرناكم أقلية، ونحن أقلية أخرى، فهاتان الأقليتان معًا يشكلان أغلبية، لا يمكن أن تخسر أي انتخابات إن خاضاها معًا..

عبد الله: فكرة جبارة!! ولكنها للأسف مستحيلة..

رامز: من أسبوعين يا عبد الله كان مستحيلًا أن نقف معًا هنا، نهتف بسقوط النظام..

***

«الشعب يريد إسقاط النظام»

كان الدكتور أحمد لا يمل من ترديد هذا الهتاف، وهو الذي قرر أنه مع المرابطين، ولن يبرح الميدان من يوم أن استدعوه ليداوي الجرحى.. لم يتحمل قلبه كم الظلم الذي رأه، وملأته الحسرة على كم الضحايا الذين عالجهم من عدوان غوغائي غاشم.. عدوان ومعتدين، لم يحاولوا للحظة أن يميزوا أو يرحموا؛ فالطلق الناري للقلب بغرض القتل، وليس في الهواء بغرض الترهيب، وضرب العصي بقوة على الرأس، وليس على فخذ أو حتى ظهر ليعطي فرصة حياة للمتلقي.. رأى في كل إصابة عالجها كمًّا من الجبروت والضيم من نظام، أصبح لاشك لدى الدكتور أحمد أنه نظام يكره ويحتقر شعبه: نظام انكشف وجهه الأهوج عن أن لا غرض له إلا السلطة المطلقة دون حدود.

من فوق المسرح الذي تجمع حوله جمع كبير من الثوار، جاءت تلك الهتافات إلى أذني الدكتور أحمد، والتي غدت تطربه أكثر من أم كلثوم:

«كلنا إيد واحدة ... وطلبنا حاجة واحدة

ارحل ارحل ارحل ارحل

يسقط يسقط النظام

يسقط يسقط النظام

كلنا إيد واحدة وطلبنا حاجة واحدة

هو يمشي مش هانمشي»

علـى صوت جيتـار المغني، كان الوقـوف يرددون مقاطـع أغنيته، التي هـي هتافاتهم، التـي اعتادوها والموسـيقى تصاحبها. الدكتور أحمد شـدا معهم، وبجانبه شيرين وباسم والآخرون.. عندما توقف الجميع عن الغناء ليلتقطوا الأنفاس، نظر الدكتور أحمد إلى شيرين وباسم قائلًا:

- على فكرة أنتم جيل أجدع من جيلنا..

باسم: يا دكتور، أنتم من ربيتمونا؛ لذلك أي جدعنة أخذناها عنكم..

الدكتـور أحمد: لأ، نحـن خنعنا وقبلنا ماوجدنا.. لم نفكر يومًا أن نقف أمامهم مثلما تفعلون..

شـيرين: يا عمـي، ظروفكم كانت غيـر ظروفنا.. لم تكـن الأمور مثلما وعينـا نحـن لنجدهـا.. حين كنتم فـي مثل سـننا، كنتم ترون تحسـنًا وكان لديكم أمل.. لم يكن النظام قد توحش بعد، ولم تكن أنانيته معلنة ولا قسوته عنوانه، مثلما هي مؤخرًا، بعد أن كشر عن أنيابه..

الدكتور أحمد: كان يمكننا أن نفعل ما أنتم فاعلوه الآن.. لقد اخترنا أن نخاف، أما أنتم فقد اخترتم أن تكونوا شجعانًا..

شيرين: البداية لم تكن بالسوء الذي وصلت إليه الأمور الآن يا دكتور.. وحين بدأتم تشعرون بالتردي، كنتم قد حملتم مسئولياتنا، وأنهيتم سنين الشباب فأصبحتم أكثر رزانة وأقل مغامرة.. لعل زمنكم لم يكن محتاجًا لوقفتنا، الأمور كانت محتملة، بل كانت في بعض الأحيان مشرقة..

الدكتور أحمد: لم تكن أبدًا مشرقة، كانوا دائمًا يحملوننا همًّا أو آخر.. كان هناك دائمًا سبب أو شيء نتحمله، ونؤجل معه طلباتنا وآمالنا..

شيرين: أتدري يا عمي، لقد أشعلنا الشرارة الأولى، ولكن انظر حولك ستجد الجميع واقفًا هنا..

الدكتور أحمد: صحيح.... أحلى حاجة في البلد أن أهلها يعشقونها.. يشتكون منها لبعضهم، ولا يكفون عن نقدها فيما بينهم، ولكنهم يقطبون وجوههم إن حاول من ليس منهم الانتقاد. ولكن أتدرين يا شيرين، كل شكوانا في الحقيقة لم تكن من البلد، بقدر ماكانت من النظام، وما تسبب فيه من فساد في أخلاق الناس.

شيرين: بلدنا جميلة يا عمي، وتستاهل أفضل مما فرضوا عليها وعلينا..

الدكتور أحمد: حين أفكر فيما مررنا به، أجد أنه لم يكن فسادًا بقدر ماكان إفسادًا متعمدًا.. خطة محكمة طويلة الأجل.. لقد أدركوا أن ثروة مصر في ناسها فهاجموا الناس.. أغرقوهم فقرًا وجهلًا؛ وحتى من تعلم أضعفوا علمه.. منتهى الذكاء لأن الشعب لو تعلم وأدرك، لكان سؤاله الأول حين يستفيق للنظام ورأسه: ما الذي تفعله هنا؟ وألم يطل بقاؤك على كرسيك؟

شيرين: صحيح.... وهذا ماعلمناه أنفسنا؛ لأن مناهجهم كان الغرض منها أن تلقنَّا أن كل شيء تمام، وليس بالإمكان أحسن مما كان..

الدكتور أحمد: المضحك أن النظام هو الذي تبنى انتشار التكنولوجيا، وتبناها لتكون إحدى أهم أدوات الثورة عليه.. إن ربنا يسلط أبدانًا على أبدان؛ ما كانوا يفتخرون ويتشدقون بتقدم البلد فيه، هو الذي تهتز به عروشهم اليوم..

قطع الحديث هتافهم معا:

«ثورة ثورة حتى النصر ... ثورة في كل شوارع مصر»

لم تنقطع الأفكار عن التدافع في ذهن شريف، طوال رحلة التاكسي به إلى أكاديمية الشرطة بالقطامية.. أفكار ومشاهد كانت تؤرقه وشواهد، كلما حاول سبر أغوارها، قادته إلى أحاسيس رافضة لما كان يراه، قبل أيام، عاديًا ومقبولًا، بل وفي أحيان مطلوب المزيد منه.

لم يستطع شريف أن يتعامل مع ما عايشه في الأسبوعين الماضيين.. لم يستطع أن يقبل تطبيق ما قرأ عنه وتعلمه نظريًّا.. لم يفارق مخيلته، قط، أخر مانطق به الشاب الذي مات أمامه:

«إحنا صح»

اقتناعه بما يدرس وحلمه المثالي في أن يكون يومًا رجل الشرطة، الذي يحمي وطنه ومواطنيه.. ومثلما تساقطت أقنعة النظام وتصدعت أركانه، مثلما اهتزت دواخل شريف وزلزلتها.. لم يعد قابلًا لسطوة عادل وصلفه، أصبح يشك في طبيعة ما يفعله من كان مثله الأعلى.

حين وصل إلى مدخل الأكاديمية، وسمحوا له بالدخول، بعدما فتشوه وتأكدوا من أوراقه، دلف شريف فور دخوله إلى حيث مكتب شئون الطلبة.. حين وصل إلى مقصده، وجد المكتب خاليًا إلا من ضابط صف، انزوى في ركن، يشرب شايه، ويقرأ جريدته.

شريف: أريد أن أقابل المدير..

ضحك ضابط الصف، وهو يقول: وأنا أريد أن أقابله! الباشا اختفى من الأسبوع الماضي.. أنا الوحيد من مكتب شئون الطلبة الموجود هنا. تحت أمرك؟

شريف: أريد أن أسلم هذا الخطاب..

مد شريف يده بالخطاب للرجل الذي فتحه، وبدأ في قراءة المكتوب، قبل أن تكسو وجهه بعض الدهشة؛ ليرفع رأسه موجهًا سؤاله لشريف:

- متأكد يا ابني؟

شريف: من فضلك، وقِّع لي على الصورة بالاستلام..

لم يجد الرجل بدًّا من الاستجابة لإلحاح شريف، فختم صورة الأوراق ووقعها، وأرجعها لمقدمها، الذي راجع تأشيرة ضابط الصف، التي نصت:

«استلمت أصل الاستقالة في تاريخه»

رافقته الابتسامة طوال طريق عودته إلى التحرير.. لم يزره طيف الشهيد أثناء عودته، وحين وصل الميدان علا صوته مع الهاتفين:

«ارحل ... ارحل»

***

اليوم السابع

الجمعة

١١

فبراير

٢٠١١

بـات ميـدان التحريـر ليلتـه حزينًـا، بل لعلهـا أكثـر لياليه يأسًـا منذ بدء الأسـبوعين، اللذين اسـتعاد فيهما شـبابه وعـاد إلى عنفوانه المسـتمد من حماسـةٍ وإصـرارٍ من وقفوا فيـه، وعبأوا جنباتـه ثورة وحيويـة. ولكن ليلة البارحـة كانت ثقيلة وبائسـة، بعكس بدايتها التي امتـلأت فرحة وعلا فيها الغنـاء، وكانت أعلـى نبراتها تلك المملـؤة تفاؤلًا.. فمنـذ العصر ارتفعت الأعـلام فـي أيدي الواقفيـن، تتراقص علـى أنغام حب مصـر.. كان الخبر قد سـرى بأن إدراك المراد قد أصبح على مرمى البصر. الابتسـامات كانت تمـلأ المـكان وتزين الوجـوه، الـكل كان وكأنـه على علم بما سـيحدث، ولكـن لا أحـد كان يعلن مـا يبطن، في انتظار الإعلان الرسـمي عن تحقق المطلـب، الذي فوَّت عليهم راحة ديارهم، وجعلهم مرابطين في التحرير: رحيـل الرئيـس.. الانتظار أصبـح مذاقه لذيذًا مـع التنويهـات المتتالية بأن الرئيـس سـيلقي كلمـة؛ سـتكون كلمتـه الأخيـرة وبعدهـا فـراق. الأعلام تتراقص والأعداد تزداد، والوصول لا ينقطع، وكأن الجميع أراد أن يحتفل بالانتصار في المكان، الـذي أصبح رمزًا لمصر وأهلها. الأصوات في هذا المساء لم تكن تهتف سياسة، بقدر ماكانت تشدو أغنية شادية في طرب:

«يا حبيبتي يا مصر يا مصر

يا حبيبتي يا مصر

يا مصر»

ولكن السيد الرئيس كعادته ضنَّ على شعبه بأن تكتمل فرحته، أو حتى أن يبات ليلة مسرورًا، فآخرهم في انتظاره قبل أن يفجعهم بخطبة، لابد وأنها ستطير النوم من أعينهم.. خطبة لم يستطيعوا أن يصبروا أو ينتظروا حتى ينتهي منها؛ لأنهم ضجروا، فتعالت الهتافات من جديد:

«ارحل ... ارحل»

«مش هانمشي ... هو يمشي»

كان وكأنه - بقدرة خارقة - قد ألقى على الجموع دلو ماء بارد في ليلة شتاء.. التفاؤل انسحب ونبض القلوب السعيدة خفت، فبدأ من سيمضي ليلته في الميدان يستعد للنوم، في حين انصرف في صمت ووجوم من انصرف. الخيط الوحيد الذي ربط الجميع ليلتها، هو أن الجميع في الغد موجود، وأن الرسالة ستكون أكثر وضوحًا دون رضوخ.. اليأس الذي أصاب الجميع جعلهم متيقنين أن عناد الرجل لا سقف له، وأنه لن يفل الحديد سوى الحديد، فلا بديل إلا أن يجعلوه يرى أن عنادهم أعنف وأعتى مما يتصور، وأنهم لن يشربوا هذه المرة من ترياق الصبر المهدئ، الذي طالما أسقاه لهم حتى تخيل أنهم أدمنوه.

في الصباح، توافدت الجماهير كما لم تتوافد من قبل على الميدان، وكأن يأس الليلة الماضية لم يكن، وكأنهم قرروا أن لا يحققوا للخطاب ما هدف إليه. الوجوه علاها التحدي، والنفوس امتلأت تصميمًا على المضي دون تراجع ولا استسلام.. الرسالة كانت ستؤكد وتعضد هذا النهار: انتهى وقت التفاوض، فلا بديل عن الرحيل.

برز جزء من التصميم في تبكير الجموع على الحضور.. جزء من الرسالة التي أرادوا بعثها للرئيس، وكأن لسان حالهم إننا لسنا نائمين، بل شديدي اليقظة ومتنمرين.

وصف الميدان بأنه امتلأ كان دون الحقيقة؛ لأنه فاض بمن وقفوا فيه.. عقارب الساعة تدور، ووقت صلاة الجمعة بدأ في الاقتراب، ومعها يزداد الترقب.. لم يكن أحد في انتظار حدث بعينه، بقدر ما كانت الصلاة محطة تقطع اليوم وتقسمه.

علا صوت الأذان، فبدأت الصفوف في الاصطفاف، ومعها خيم الصمت والهدوء على التحرير.. لم يكن صوت الخطيب واضحًا أو واصلًا لأبعد من عدة صفوف من الصفوف الأولى، ولكن الجميع وقفوا منصتين، وهم يحاولون استبيان أي كلمة تصلهم من الخطيب. مع نهاية الخطبة، بدأ الإمام في الدعاء، ومن وراءه المصلُّون مؤمنين، وسرعان ما بدأت الصلاة.. خشعت القلوب، وكان مشهد المصلين وراء إمامهم يخلع الأفئدة، بعد الركعة الثانية، بدأ الإمام في دعاء قنوت لعله الأطول في حياته.. مازال الصوت لا يصل إلى كل المصلين، وإن كانت الكينونات كانت كلها على قلب ورجاء رجل واحد، فلم تكن الأذان بحاجة لأن تميز ما أدركت أن الأمام لابد أنه داع به.

ما إن انتهت الصلاة، حتى بدأت تسري من جديد همهمة بين الحضور، ما لبثت أن وصلت إلى مستوى الضجيج الذي يناسب أعدادهم، التي مازالت مستمرة في الازدياد.. الهتافات تعلو من ناحية إلى أخرى، كلها تعبر عن حالة الحنق، الذي تمتلأ به الصدور:

«يا شهيد نام وارتاح ... وإحنا نكمل الكفاح»

و«مصر يا أم ... أولادك أهم»

ولكن الهتاف شبه الدائم والمتكرر، والذي بدا أن الثوار لم يملوه ولن يكلوه، كان:

«ارحل ... ارحل»

***

استمرت المناقشات والأحاديث دون توقف، مع استمرار الوقفة.. الدكتور أحمد فوجيء بتعليق خالد، الذي يبدو أنه وجد فيه بغيته، ليرمي صوبه ما كتمه منذ الصباح:

– بصراحة يا دكتور، أنا هنا اليوم، وأنا نصف مقتنع، لقد استجاب لما طالبوا به، وتنازل عن سلطاته لنائبه..

الدكتور أحمد: أولًا هو لم يتنازل بل فوَّض نائبه.. فوَّض من عينه هو، فوَّض من يستطيع أن يلغي تعيينه، دون مقدمات..

خالد: يا دكتور ، لعل الرئيس يريد حفظ ماء وجهه ، والانسحاب بطريقة محترمة بلا هوان ، لعلنا نتحمله ، ونخرجه دون المساس بكرامته.

الدكتور أحمد: وماذا عن كرامة الملايين ، التي امتهنها واستحلها ، هو وعصبته سنين .. البادي أظلم وهم الذين أفقدونا الثقة. هل نسوا ما فعلوه بنا في ثلاثين عامًا؟! انظر فقط لأدائهم في الأسبوعين الماضيين..

خالد: ماذا تقصد؟

الدكتـور أحمـد: أسـاليبهم بالية تمامًا مثل الأسـلحة الفاسـدة، ارتدت فـي صدورهم. قطعوا الإنترنت والمحمول، فاسـتفزوا الناس الذين جاءوا مسرعين، دون دعوى لنصرة من تصوروا أنهم يعزلونهم..

خالـد: لقـد تصـوروا أنهـم بذلـك يقللـون مـن قـدرة الشـباب علـى التواصل..

الدكتـور أحمد: حتـى حيـن أرادوا أن يجملوا أنفسـهم، فوضعوا وائل غنيـم على التليفزيون؛ ليشـهد أنهـم لم يؤذوه؛ وليحسـن صورتهم، فإذا به يعيد إشعال الشرارة بدموع مست قلوب شعب عاطفي .

خالد: أنا شـخصيًا ، نفسي أقابل كاتب خطابات الرئيس.. لو أن غرضه أن يكرهه الشعب، فإنه يؤدي عمله بجدارة..

الدكتور أحمد: ونائبه الـذي عيَّنه؛ كنت أظنه أكثر قدرة على التفاوض، ولكنه مصر على أن يتحدث بأسلوب سلطوي وفوقي .. لا عجب أن العالم لم يعد يسـمعنا ، إذا كانت هذه طريقة خطابنا .. أما رئيس الوزراء الجديد، فلا أدري كيف يقبل ما يعرضونه عليه .. الرجل يعد بألا يمس أحد ممن في التحرير، فيرسلون لهم الجمال..

خالد: هو اختار الشـكليات، محاولًا التبسـط في طريقة كلامه وملبسه، ولكنـه يفتقـد قدرة التواصل، لا يدلي بحديث، دون أن يخطئ في كلمة، أو يستفز المشاعر بعبارة..

الدكتـور أحمد: كلهم نفس الرجل ونفس النظام؛ لهذا السـبب الجميع هنا؛ لأن النظام مُصِرٌّ على فقدان وإهدار مصداقيته..

خالـد: العالـم كلـه انقلـب عليهـم بالـذات، بعدمـا أطلقـوا بلطجيتهم علـى الصحفييـن الأجانب.. صفحـات الإنترنت في حالة هيـاج على هذا الموضـوع.. أنـا لا أصـدق أن يكون هناك مـن يدير الأزمة بهذه السـطحية والسذاجة..

الدكتور أحمد: إنها نفس السـطحية أو سـمها الطريقة البالية، والصلف الذي اعتادوه وتعودناه سنين .. السنين التي تحملناهم فيها، دون أن نصيح، جعلتهم لا يعرفون سـوى أسـاليبهم، ويظنونها فاعلة .. ولكن جاءهم هذه المرة شباب ، يتحدث لغة ، شاخوا عن أن يفهموها .

خالـد: معك حق يا دكتور، لم أعد نصف مقتنع؛ لقد أقنعتني تصرفاتهم بوجوب رحيلهم.

***

باسـم وعبـد اللـه ورامز وشـريف كانـوا مسـتغرقين هم الآخـرون في مناقشتهم، التي بدأها شريف بسؤاله:

– بما أني مسـتجد في التحرير، ممكـن تفهموني لماذا لم نقبل تفويض الرئيس لنائبه؟

باسم: لأن طلبنا هو أن يرحل..

شريف: ولكن الأسبوع الماضي، كان هذا البديل مقبولًا..

باسـم: كان مطروحًا من النظام، وكعادتهم اعتبروا أنه مقبول منا.. دائمًا يعتبرون ما يقولونه مقبولًا.. لم يقبل أحد هذا الحل أصلًا..

شريف: ولكنه يعتبر في حكم من رحل..

رامز: لا يوجد شيء اسمه يعتبر أو في حكم.. إما رحل أو لم يرحل، لا يوجد حل وسط في هذا الموضوع..

عبد الله: ألم تسمع خطاب أمس يا شريف؟ لقد ظل يتحدث طوال الوقت بصفته رئيسنا، أكثر من عشر دقائق، وهو يقول لنا عن تعليماته وقراراته وتوجيهاته، ثم ذكر قرار التفويض في عشرٍ ثوان، وكأنه لا يريدنا أن نسمعه يعلن هذا القرار..

باسم: شريف، ألاحظت أنه واسانا في شهدائنا.. لقد قال شهداؤكم، وكأنهم لا يخصونه.. كيف يريد أن يكون رئيسًا، وهو يرى أن جزءًا من هذا الشعب لا يخصه؟!

رامز: وأي حوار يتكلم عنه عندما يخطرنا نائبه بسلطوية معتادة، أن خياراتنا هي إما قبول ما يملون، أو الانقلاب.. حاجة غريبة جدًّا أن يهددنا بالجيش، الذين يعتمدون عليه كي يحميهم..

شريف: كلامكم معقول، ولكن أليس التفويض خطوة في طريق الوصول إلى ما نريد؟

باسم: النظام في حالة هلع، مزيد من الضغط سيجعلنا نصل إلى ما نريد، دون حاجة إلى خطوات على أي طريق..

عبد الله: بالأمس، حاول الاستعطاف مرة أخرى، واللعب على عاطفة الشعب، ولكن هذه المرة لم ينخدع أحد..

شريف: لم يكن أحد لينخدع مرة أخرى، بعد خيانة أخر خطاب..

رامز: حتى مؤيديه لم يخرجوا هذه المرة.. حتى هؤلاء فقدوا الثقة..

عبد الله: لم يعد له مؤيدون، لأنهم في الأغلب منتفعون، فأصبح كل منهم يبحث عن حاله.. كله باع كله يا باشا..

باسم: أتدري يا شريف، حتى التفويض أراده مبهمًا حتى يعود فيه.. سأقول لك عن سيناريو، وقل لي إن كان مستحيلًا: نقبل التفويض ونرجع بيوتنا. يلي ذلك أسبوع أو أسبوعين من المهادنة والتصريحات العنترية عن الإصلاح، ولا مانع من عدة أكباش فداء، يضحي بهم النظام. بعد فترة، ولنقل شهرًا، يملأون نفس هذا الميدان بمؤيديهم، يتغنون بالنظام والاستقرار، ولا مانع أن يعلو صوت أحدهم مطالبًا الرئيس بالعفو والسماح، وألا يفارقنا لأنه مصر ومصر هو.. أليسوا بقادرين على ذلك!! هل تستطيع أن تجزم بألا يحدث ذلك؟

شريف: صعب جدًّا يا باسم، سنعود إلى هنا في هذه الحالة، ولن نمشي..

باسم: ولكنهم سيكونون مستعدين لنا هذه المرة، وسيكون أمن الدولة قد جمع أكبر عدد منّا؛ حتى لا يكون لنا نفس القوة أو التنظيم.. شريف هذا نظام أطلق المجرمين على الشعب ليسكتهم.. هذا نظام لا ضمير له، ولن يتوقف عن شيء في سبيل تحقيق مراده..

عبد الله: كل محاولاتهم يا شريف هي من أجل تهدئة الوضع الحالي؛ حتى يلتقطوا أنفاسهم، وسرعان ما يعودون لجبروتهم. أتستطيع أن تشرح لي لماذا لم يستقِل من على رأس حزبه الفاسد، ولو حتى من باب المجاملة لنا؟

رامـز: الخلاصـة أن هـذا النظـام ورأسـه لا يحبنـا.. لا يحبـون لا البلد ولا الشعب، فقط يعشقون السلطة ويقدسون مصالحهم..

شريف: خلاص يا شباب، فهمت!! قولوا ورائي:

«ارحل ... ارحل»

***

كارول انتهزت فرصة وقوف شيرين بجانبها؛ لتصطادها بسؤالها:

- ألا تخافون أن يحكمكم الإخوان المسلمون؟

شـيرين: وألا تخافـون أنتم على الدوام من السـود واليهـود، بل وحتى المسيحيين المتشددين؟ ألم يكن بوش من أقصى اليمين المسيحي؟

كارول: ولكننا لدينا نظام، نستطيع أن نراقب من خلاله..

شيرين: ونحن هنا لنطالب بنظام مماثل..

كارول: ولكن جميعنا متعلمون وقادرون على الوعي السياسي..

شـيرين: حين بدأتـم لم تكونواكلكم متعلمين، بـل كان منكم مجرمون فـي منفى.. ثـم إن الهند بها أميـون، وبها ديموقراطية، يضـرب بها المثل.. لماذا تستكثرون علينا ما تنعمون به؟

كارول: ولكنهم سيجعلون منكم إيران أخرى..

شـيرين: وقد يجعلـون منا إندونسـيا أو تركيا أخرى.. هـذه بلاد حلفاء لكم. يا كارول مصر ليست إيران، ولن تكون إيران أبدًا..

كارول: حين حدثت ثورة إيران، وقف الشعب مثلكم حتى سطا عليها الخوميني وعصابته..

شيرين: قولي لي يا كارول، وماذا فعل لكم الخوميني؟ فيم أضركم؟ لا شيء مجرد رفض لسياساتكم، ولكنه ونظامه يتحدونكم، قولًا فقط لا فعلًا..

كارول: ويساندون الإرهاب..

شيرين: اذكري لي حادثًا واحدًا أثبتت مخابراتكم أن إيران وراءه.. إيران فقط تقلق مضجع إسرائيل، وأنتم لا تستطيعون تحمل ذلك. أتعرفين، لو أنكم تبذلون جهدًا في قراءة ودراسة الأمور، لوجدتم أن مصر مختلفة الجوهر عن إيران: نحن سنة وهم شيعة، وهذا وحده يملي عليكم أن تحللونا في ضوء مختلف..

كارول: ولكن المتطرفين المسلمين واحد في النهاية..

شيرين: خطأ! الاختلاف بين السنة والشيعة كالاختلاف بين الكاثوليك والبروتستانت؛ حينما تدرسون أيرلندا تأخذون هذا في الاعتبار، ولكن في حالتنا بالنسبة لكم، فإن كلنا واحد. طول الوقت تحاضروننا عن عدم التعميم، ثم اخترتم لنا توصيفًا واحدًا: مسلم ومن بعد هذا جعلتم كلمة «مسلم» مرادفة لإرهابي.

كارول: كل أو معظم الأعمال الإرهابية في العقدين الماضيين، كانوا وراءها من تسببوا في دمغ جموعكم بهذا الوصف.

شيرين: منتهى المكارثية.. تمامًا كما فعلتم مع الأمريكي من أصل ياباني وقت بيرل هاربور.. كلها كم سنة، وتعتذرون لنا عن هذا كما فعلتم

مـع اليابان. لماذا لا نكون مثل تركيـا؛ هناك أولاد عم الإخوان في الحكم، وأنتم تعتبرونهم أصدقاء..

كارول: ولكنهم لديهم ديمقراطية..

شـيرين: مرة أخرى هذا مانطالب به.. انظري حولك: هل ترين كل من يقفون إخوانًا؟ الأغلبية ناس عادية.. الدين لها مهم، ولكنه ليس بالضرورة سياسة. أ تدرين من أوصلنا أن نقف هنا؟

كارول: من؟

شـيرين: حكوماتكم وسياسـتها.. لقد اخترتم مـن أجل مصالحكم، أن نرزح نحن في الظلم والديكتاتورية؛ لأنه كان الحل الأسهل والأسلم؛ هذا في الوقت نفسـه الذي تدعون فيه الديموقراطية. حتى منذ بدأنا وقفتنا هنا، ظـل مسـئولوكم متخبطين: يـوم يؤيدوننا، ويـوم يقولـون إن النظام صديق وحليف، كل يوم برأي..

كارول: أنا أعيش هنا، وأعلم الوسـطية التي أغلبيتكم عليها، والإخوان لن يسمحوا لكم بهذا..

شـيرين: هذه فزّاعة خلقتموها أنتم وطغاتنا.. أتعلمين، نحن سـنمنعهم مـن هـذا بالديمقراطية والحرية. إذا وصلوا للحكم، سـيضطرون لمخاطبة القبطـي والليبرالي واليسـاري؛ لأنهم سـيصبحون رجال سياسـة.. هذا إن وصلوا أصلًا، ثم من قال لكم إن كل ذي ذقن إخوان، هناك سلفيون وجهاد وغيرهم، وعلى فكرة.. أغلبيتهم ليسوا على وفاق..

كارول: أنـت رومانسـية فـي آرائـك؛ أرجـو أن تصـدق نظرتـك، وألا تصدمي..

شـيرين: ما رأيته هنا في الأسبوعين الماضيين، وما عشته في هذه البلد، طوال عمري، يؤكدان صدق حدسـي إن شـاء الله.. لا شيء مؤكد، ولكننا نستحق أفضل بكثير مما أعطينا..

***

الزخم استمر في الميدان ، والأحاديث لم تنقطع ، والتعليقات تطايرت مـن كل صـوب . الوقـت كان يمر دون حـدث ، ودون توقـع لجديد ، وإن كانـت عزيمـة الوقوف لم تـكل . بعد العصر ، عـمَّ الميدان هـدوء ، وكأنه يلتقط أنفاسـه، بعدما استمر في اللهاث ، طوال الأيام ، التي مضت ، والتي قاربت العشرين يومًا .

الشـمس هي الأخرى ، بدأت تحنو على المحتشـدين من وطأة الحرارة، فآثـرت الانسـحاب متجهة غربًـا ، وكأنها أصابها يأس من تطـورات في هذا اليوم .

انتشـر الخبر بأن رئاسة الجمهورية بصدد إصدار بيان ، فلم يلهم هذا أيًّا من الثوار ، بعد أنه لم يعد أحد يتفاءل بما يمكن أن تقدمه هذه المؤسسـة ، بالذات ، وبعدما أصبح كل ما هو آت من هناك نوعًا أو آخر من الإحباط .

الطاقة في الميدان كانت عالية ، وكأنها مستمرة ودائمة التوليد .. ولكنها لم تكن بالضرورة إيجابية ، ولا هي سلبية ، وإن كانت رابطة لقلوب ووجدان كل من اختلطت كياناتهم مع المكان ؛ ليصبحوا قلبًا واحدًا نابضًا، على دقة ورجاء واحد .

بدأ جزء من الميدان يؤدي صلاة المغرب، حين ملأ صوت عمر سليمان الأجواء، عبر الميكروفونات، قائلًا:

«بسم الله الرحمن الرحيم

أيها المواطنون:

فى هذه الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد، قرر الرئيس محمد حسني مبارك تخليه عن منصب رئيس الجمهورية، وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة لإدارة شئون البلاد..

والله الموفق والمستعان.»

دوي الفرحة التي صدر قبل أن ينهي بيانه كان أقوى من كل القنابل، التي ألقيت في الميدان مجمَّعة. الأعلام في الأيادي تتراقص، والأحضان تُتَبادل، وهذا يرقص.. وهذه تبكي.. والأخر ساجد حمدًا.. والبعض دموعه لا تتوقف. الوقت توقف وقلب مصر رفرف سعادة، هم وانزاح، فمن أرادوا رحيله سعدوا بانتصار إرادة الأمة، وحتى المعدودين من محبيه كانوا قد وصلوا إلى حقيقة حتمية تنحيه.

الحفل استمر والمحتفلون تضاعفوا، وكأن مصر عن آخرها، وجدت مكانًا في التحرير؛ لتقف وتغني وتتمخطر على أنغام حرية لم تعتادها. مدهش، كيف أصبحت بلد في مطلع المساء تنعم بهذا الكم من السعادة، وهي نفسها البلد التي جافاها النوم من قبل ليلة، وهي تعاني من صلف وعند، لم يبدو أن لهما حدودًا.

حين حان وقت الانصراف، تحركت كتيبة شارع حسين حجازي معًا متجهين إلى بيوتهم. رامز وشريف تبادلا قيادة هتافاتهم في رحلة العودة..

هـذه المرة، لـم يكن هناك سـوى هتاف واحـد، اتفقوا عليه، وبقيـة القافلة مرددیه:

«ارفع رأسك فوق ... أنت مصري»

الجميع سمع صوته يردده على إيقاع دقات القلوب، حتى كارول ظلت تردده، وهي تشجع سارة وآدم على الهتاف معها:

«ارفع رأسك فوق ... أنت مصري»

***

فـي راحـة بيوتاتهم، وكأن الجميـع أجمع على ذلك دون سـابق اتفاق؛ وكأن الجميـع قـرر أن يتذكـر في لحظة واحدة شـهداء التحريـر؛ علا غناء رامي جمال وعزيز الشافعي، وهما يؤصِّلان ويذكِّران برسالة الشهداء:

«يا بلادي يا بلادي

أنا بحبك يا يلادي

قولوا لأمي ما تزعليش

وحياتي عندك ما تعيطيش

قولوا لها معلهش يا أمي

أموت أموت وبلدنا تعيش

أمانة تبوسولي إيديها وسلمولي على بلادي

في جسمي نار ورصاص وحديد

علمك في إيدي واسمي شهيد

باودَّع الدنيا وشايفك

يا مصر حلوة ولابسة جديد

لأخر نفس فيَّا بنادي

باموت وأنا بحب بلادي

طايرين ملايكة حواليَّا طير

لحظة فراقك يا حبيبتي غير

هامشي معاهم وأسيبك

وأشوف يا مصر وشك بخير

قالوا لي يالّلا على الجنة

قلتلهم الجنة بلادي»

نفذ الغناء أكثر إلى قلوب السامعين ، حين كانت الكلمات :

«قولوا لأمي ما تزعليش

وحياتي عندك ما تعيطيش

قولوا لها معلهش يا أمي

أموت أموت وبلدنا تعيش

أمانة تبوسولي إيديها وسلمولي على بلادي»

ارتمى خالد في حضن أمه، ولم يحاول إخفاء نحيبه، الذي لم يهدأ إلا حين ضمته إلى صدرها، ودموعها تبلل وجهها، في حين دغدغ احتضان سارة وآدم لوسطه مشاعره.

« في جسمي نار ورصاص وحديد

علمك في إيدي واسمي شهيد

باودع الدنيا وشايفك

يا مصر حلوة ولابسة جديد

لأخر نفس فيَّا بنادي

باموت وأنا بحب بلادي»

الدكتور أحمد كان يطمئن على جرح باسم، الذي كان قد اندمل، ولكنه أصر على أن يغير له عليه. حين انتهى، مال عليه وقبل رأسه مذكرًا باسم بما لم يفعله منذ شبّ.

عبد الله أطال سجدة شكره، وهو يستغفر للشهداء، ويدعو أن يصيبه يومًا جزاؤهم..

« طايرين ملايكة حواليّا طير

لحظة فراقك يا حبيبتي غير

هامشي معاهم واسيبك

واشوف يا مصر وشك بخير»

إلهـام كانـت قد أصرت أن تبيت شـيرين معهـا، فرقدا جنبًـا إلى جنب، يحلمان بفرسـان الأحلام ؛ في مخيلة شـيرين كان «باسم»، وفي حلم إلهام مازال قرين «خالد سعيد».

«قالوا لي ياللا على الجنة

قلتلهم الجنة بلادي»

رامـز تلقـى رسـالة مـن سـامي، تقـول: «مبـروك.... كان نفسـي أكون معك».

اكتملت ابتسامة رامز، بعد أن انتهى من قرأة الرسالة، حين وضع جوازه الكندي داخل درجه وأغلقه.

«يا بلادي يا بلادي

أنا بحبك يا بلادي»

***

البداية ...

خمسة أسابيع مرت سريعًا.. جمعة انقلب فيها التحرير إلى أكبر حفلة مصرية، وأخرى استعد للمطالبة برحيل رئيس وزارة.. الناس متسمرة أمام التليفزيونات محتارة مَنْ تتابع، متنقلة من قناة إلى أخرى؛ خوفًا من أن يفوتها تعليق أو إيماءة.. شعب قرر أن يبدل فهمه العميق لقانون التسلل في كرة القدم إلى تبحر في الدساتير وتاريخها. لم يعد الممثلون أو الكرويون نجومًا، بل أصبح كل فقيه دستوري له دراويشه ومريدوه.. أصبحت التعديلات الدستورية الشغل الشاغل للشارع المصري، وأصبح السؤال المصيري المقلق: **نعم أم لا؟**

زخم كبير لا نهاية له وجدل سياسي افتقدته مصر، ولم يعرف بوجوده أصلًا أجيال؛ لأنهم لم يعطوا الفرصة ليعيشوا ما يماثله، ولكنه كان حوارًا صحيًّا في أغلبه مهذبًا.. كل جانب استخدم ما استطاع من ترهيب وترغيب.

أحداث سريعة، كثير منها مثير للقلق على وحدة الأمة، وبعضها مثير لعلامات استفهام، والآخر جعل البعض يتوق من كل قلبه إلى استقرار تعوده.

سرعان ماجاء يوم ١٩ مارس، ومصر في حالة انقسام صحي، لعله إثبات أن هناك ثورة أتت بتغيير.

أم خالد وابنها كانا أول من وصلا إلى مدرسة قصر الدوبارة في الثامنة صباحًا، ليفاجأ كل منهما بأنهما في ذيل طابور طويل سبقهما.. خالد كان سيقول «نعم»؛ لأنه آمن أن في هذا استقرارًا للبلد، وعودة أسرع لدوران ماكينة الاقتصاد. أمه لم تقل له إنها ستقول «نعم» هي الأخرى، ولكن ليس

لأسبابه، فقناعتها أن التعديلات كافية، وأنها إن قالت «لا» فسيكون البديل هو المجهول، وهى التي عاشت عمرها تحب الوضوح.

مالبث للدكتور أحمد وزوجته أن انضما للطابور، الذي ازداد طولًا مع الوقت. نقاشهم مع باسم لم يجعل أيًّا من الطرفين يقتنع بوجهة نظر الآخر. كما قال له الدكتور أحمد، كان رفض باسم ما هو إلا أن الثورة لم تخمد في صدره بعد. في لحظات، كاد أم وأبو باسم أن يقتنعا بوجهة نظر ابنهما في التعديلات، حتى استمعا إلى لواء الجيش، يؤكد أنهم سيعلنون بيانًا دستوريًّا ينهي بلا رجعة الدستور البغيض، الذي حكمت به مصر سنين الأنين.. حين ذاك اتفقا على أن التعديلات غدت وافية، فنزلا ليقولا «نعم» عن كامل اقتناع.

باسم ورامز وصلا معًا وكلهما ثقة أن صوت «اللاءات» سيعلو، حتى وإن لم ينتصر، فسيكون عميق الأثر حتى يعمل لمن قالوها حساب. في قلوبهم، كان فخرًا أنهم أعطوا بلدهم فرصة ما تختبره في يومها هذا، وكان تيهًا أنهم من أولئك الذين يشار إليهم بأنهم من الثوار. نظرة عتاب خرجت من عينيهما حين رأيا عبد الله وإخوانه يشرفون على تنظيم الصفوف، وتسهيل دخول المنتخبين. حين وصلت عبد الله نظرتهما، بدا له أنهما يتساءلان :

– لِـمَ شققت الصف يا عبد الله، وأنت من حميتني بالأمس، وصلبت ظهري ضد العدوان؟

عم عبده في وقفته، استرجع ما قاله شيخ الجامع في خطبة الجمعة من وجوب إدلائه بصوته، وتذكر ما قاله الإمام عن عدم شرعية قول «لا».. استمر في ترديد: ربنا يجعلنا من أهل اليمين إن شاء الله..

بجانبه، كانت شيرين واثقة من أن قرارها في قول «نعم» ليس خطأ أو خيانة، كما صورها باسم. كانت مقتنعة بأن الأمور ستسير أسرع في حال

الموافقة، وكانت واثقة أنه في حالة اعوجاج المسار، سيرحب التحرير بها والثوار ليصححوا ما لا يقبلون.

بجانبها، كانت إلهام واقفة حالمة كعادتها، ولكن هذه المرة كانت تحس أنها أصبحت أدرى بما تريد، وأن حلمها أصبح ممكنًا. لم تنم من ليلتها، حتى وصلت إلى أن صوتها سيقول «نعم»، لأن البلد لم تعد تتحمل مزيدًا من الحوار، ولأن الحوار لابد أن يُعْطَى للأكثر فهمًا، ممن يختارهم الشعب بإرادتهم.

آخر من وصل للصندوق، كان شريف الذي استيقظ عند الظهيرة كعادته.. الحوار القانوني الذي دار في الأسابيع الفائتة كان ملهمًا له. زاده الإلهام اعتزازًا بقراره في تحويل دراسته إلى كلية الحقوق.. حين مال على الورقة ليعلم خانة «نعم»، سمع صوت الشهيد يرن في أذنيه :

«إحنا صح!»

تحركت يد شريف لتعلم على «لا»!

***

«الديمقراطية ذئبان وحمل وديع تتناقش في مسألة العشاء، أما الحرية فتعني أن الحمل معد ومسلح جيدًا لهذه المناقشة»

بينيامين فرانكلين